روايات عالمية للجيب 79

أحزان الشيطان



تأليـــف : مـــارى كوريللى
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المـؤلفـة

اشتهرت هـذه القصة وكانت لها شـعبية عظيمـة فى مصر فى نصـف القـرن العشـرين الأول ، وقد قرأتها من ترجمة سيد المترجمين عمر عبد العزيز أمين صـاحب روايات الجيب . هذا سبب كاف حتى لا أترجمها كمـا اتفقنـا فى بدايـات هـذه السلسلة ، لكنى لاحظت أن هذه الترجمـة اختفـت تقريبًا ، وأن معظم الشباب لم يسمعوا عن هذه القصة أصلاً برغم أهميتها ، ولا وجـود للترجمة على شـبكة الإنترنت (برغم أن بعضهم وضعها منذ فترة ثم رفعت) ، دعك من أن نسختى الأصلية ضاعت !... اقترضها أحدهم ممن يخلطون بين كلمة (اقتراض) وكلمة (أخذ) ؛ لذا قررت أن أترجمها وألخصها لك لتكون عندى نسختى الخاصة منها أنا أيضًا ! .

مارى كوريللى Marie Corelli كاتبــة أسكتلندية ابنـــة شاعر شهير ، وقد ذهبت لتقيم فى لندن عام 1882 . وصارت عازفة بيانو اشتهرت باســم مارى كوريللى .. لم يكـن هــذا اسمها الأصلى . ثم اتجهت إلى الأدب .

كان أدبها ينتمى للمدرسة الرومانسية ، وكانت الملكة فكتوريا شخصيًا تعشق قصصها ، وكذلك ونستون تشرتشل . لكن أغلب النقاد لم يحبوا كتاباتها واعتبروها شعبية أكثر من اللازم . ورأى بعض النقاد أنها كاتبة متوسطة المستوى تعتبر نفسها عبقرية ، والعامة تقبلوا فكرة أنها عبقرية .

كانت أول رواية لها هى (قصة عالمين – 1886) ، لكن نجاحها تحقق مع رواية (ثيلما – 1887) ثم (أحزان الشيطان – 1895) . وفى الرواية الأخيرة تكرس فكرة فاوستية حزينة سادت فى الأدب بعد ذلك ؛ هى أن الشيطان يؤمن بالله جدًا – أكثر منا بكثير ـ لكنه صار خـارج فرصة الخلاص . لم يعد

بوسعه غير أن يظل فاسدًا مفسدًا للأبد . إحدى بطلات القصة أديبة ذات نجاح جماهيرى لكنها لا تعجب النقاد ، وتبالغ الرواية فى تصويرها كملاك ومثال النقاء الذى يختلف كلية عن الوسط الفاسد حوله ، لدرجة أننا نكتشف أنها كانت ملاكًا (حرفيًا وليس مجازًا !) .. يسهل تخمين أن مارى كوريللى هى ذات الشخصية ، لاحظ أن اسم الشخصية (مافيس كلير) .. أى أنه يبدأ بحرفى الميم والكاف .

انتقلت كوريللى لتعيش فى ستراتفورد أون آفـون موطـن شكسبير ، وكانت شهيرة جدًا هناك ، وتعيش حياة استعراضية مترفة تذكرنا بحياة أوسكار وايلد . مثلاً يذكر الناس أنها كانت تتنقل يوميًا بجندول فى نهر آفون بينما النوتى يغنى أغانى إيطالية لها . لقد أعادت للأذهان حقبة الكاتب النجم . لكن يمكن القول : إن شهرتها دامت حتى الحرب العالمية الأولى ، ثم بعد هذا صارت منسية تمامًا .

أشهر ما كتبت :

- باراباس – 1889
- صبى – 1900
- جماعات مقدسة – 1908
- حياة أبدية – 1911
- قصة عالمين – 1886
- القوة الخفية – 1921
- فنديتا – 1886
- زيسكا – 1896

توفيت مارى كوريللى عام 1924 .

د . أحمد خالد

-1-

هل تعرف معنى الفقر ؟ ليس الفقر الذى يزعمه أشخاص يعيشون على دخل قدره خمسة آلاف أو ستة آلاف جنيه سنويًا . لكنى أتكلم عن فقر حقيقى .. فقر مدقع .. فقر يرغمك على ارتداء بذلة واحدة حتى تبلى .. لا تغسل غياراتك بسبب أسعار المغسلة الباهظة . تمشى فى الشوارع وسط رفاقك شاعرًا بالتضاؤل والخجل . هـذا هو السرطان الذى يلتهم قلب المرء فيحيله كائنًا شريرًا حسـودًا . عندما يرى تلك المرأة السمينة ، أو هذا الرجل المتبختر الذى يشعر أن كل الطبقة العاملة خلقت لتخدمه ، عندها تسرى المرارة فى دمه وتثور روحه .. ويتساءل : لماذا هذا الظلم ؟ لماذا أقضى النهار طاويًا محرومًا ؟

لماذا ينتعش الأشرار كأنهم أشجار خضر ؟!

يمكن أن أحكى قصتى ، لكن من سوف يصدقها ؟.. لا أحد . لكنها حقيقية .. حقيقية أكثر من أى شىء يسمونه حقائق . أعرف كذلك أن رجالاً كثيرين تورطوا مثلى فى شباك الخطيئة ،

لكنهم كانوا أضعف من أن يتحرروا .. هل سيتعلمون الدرس الذى تعلمته أنا ؟ فى نفس المدرسة المريرة ، ومع نفس المعلم الكريه ؟..

لكن لا أكتب هذا الكلام لألقن دروسًا لزملائى .. فقط أحكى الأحداث الغريبة التى مرت بى بالترتيب . وسوف أترك للعقول البشرية تفسير ما حدث .

كان هذا شتاء طويلاً يذكره الناس بسبب برودته القطبية . اجتاح ليس بريطانيا فقط بل كل أوروبا . كنت أنا جيفرى تمبست وحدى فى لندن أتضور جوعًا .

لا أحد يثق فى الجائعين أو يتعاطف معهم . بالذات هؤلاء القوم المتخمون الذين لا يصدقون بوجود جياع فى العالم ، أو يظهرون اهتمامًا مفتعلاً بالأمر على مائدة العشاء . موضوع الجوع لا يبدو لائقًا للكلام عنه فى المجتمعات الراقية .

أنا الذى صار كثيرون يحسدوننى قد عرفت حرفيًا معنى لفظة جوع . الاشتهاء الحيوانى لمزيد من الطعام . هذه مشاعر قاسية بالنسبة للفقراء لكنها أقسى بالنسبة لمن نشئوا معتبرين أنهم جنتلمانات .

لقد توفى أبى فاكتشفت أن كل ما حسبته ثروتنا هو ديون .. ليس البيت لى .. ليس لدى سوى تمثال صغير لأمى التى ماتت وهى تلدنى . شقيت .. بحثت عن عمل فى كل مكان . لا جدوى . هكذا يعامل الأديب الفقير .. يزدرونه .. لا أحد يريده .. الكل يعيد له نصوصه بلا قراءة .

يعاملون الأديب كأنه أسوأ من أسوأ لص ..

كنت أعيش ليس لعشق الحيـاة ، ولكن لأننى أحتقر من ينتحرون . كنت أحمل أملاً غامضًا أن عجلة الحظ سوف تدور وسوف ترفعنى يومًا كما سبق وإن هشمتنى .

لفترة ظفرت بعمل كمراجع فى دار النشر ، وكنت أتلقى ثلاثين قصة كل أسبوع .. فاعتدت أن أتفقد عشرًا منها بسرعة ثم أكتب عمودًا ملتهبًا .. ولاحظت أن هذا يسر الناشر ، والناس تعتبر هذه المقالات ذكية . ذات مرة أجبرنى ضميرى على امتداح عمل بدا لى أصيلاً موهوبًا ، وكان كاتبه خصمًا قديمًا لمالك الجريدة . هكذا تم طردى على الفور .

وسرعان ما وجدت نفسى فى الشتاء بلا مليم وجائعًا تمامًا . لم يكن هناك عمل فى لندن .. ما من وظيفة شاغرة .

عندما وجدت عملاً ككاتب فى جريدة صغيرة ، قال لى رئيس التحرير :

ـ « أنت تنتقد المجتمع بشراسة فى مقالاتك .. هذا يضايق الناس . لا تنس أن المجتمع هو من يشترى الصحف والكتب . أتمنى لو كتبت قصة حب خفيفة .. »

سألته :

ـ « هل أنت واثق يا سيدى من أنك تحكم بدقة على ذوق المجتمع ؟ »

ابتسم وقال :

ـ « هذا عملى أن أعرف ذوق الناس كما أعرف جيب سترتى .. لا أطلب أن تكتب عملاً مبتذلاً ، لكن أؤكد لك أن ما تكتبه لا يبيع .. »

قلت له :

ـ « يبدو أن علىَّ أن أضع القلم جانبًا .. أنا موضة قديمة ، لذا أعتبر الأدب مهنة سامية جدًا .. »

نظر لى فى تهكم واستخفاف ثم قال :

ـ « أنت متحمس .. هذه مشكلة سوف تنتهى .. هلا جئت معى للنادى لنأكل ؟ »

رفضت بشدة لأننى أدركت أنه فهم مدى جوعى وفقرى ..

ودعته وعدت لبيتى . قابلتنى صاحبة النزل على الدرج وسألتنى إن كنت أريد أن أسوى حساب الإيجار . كانت تسأل برفق وقد آلمنى هذا كما آلمتنى دعوة الناشر للعشاء . كلاهما فيهما شفقة واضحة .

دخلت حجرتى وألقيت بنفسى على مقعد ، وألقيت سبة .

لم أكن متدينا فى ذلك الوقت ، ولم أؤمن بوجود إله .. كنت أعتبر نفسى فانيًا أزدرى كل خرافات الأديان برغم أننى ولدت مسيحيًا . كنت فى وضع قانط ..

لقد بذلت ما بوسعى بلا جدوى . قرأت عـن أشقياء يكدسون المـال وأشرار أثرياء . بدا واضحًا لى أن الأمانة ليست خيـر سياسة . الليـل كان باردًا ويداى تتجمدان فحاولت أن أدفئهما على مَصباح الزيت الذى تركته لى صاحبة النزل .

مددت يدى للتدفئة فلاحظت ثلاثة خطابات على المنضدة ، أحدها فى مظروف أزرق كبيـــر .. وواحـــد عليـــه علامة بريد ملبورن .. أمسكت بهذا الخطاب مفـكرًا بعض الوقت قبل أن أفتحه . كنت أعرف من أين جاء .. السؤال هو ما يحمله لى من أخبار .

منذ أشهر كتبت عن معاناتى لصديق قديم سافر إلى أستراليا لأن إنجلترا لا تتسع لطموحاته . هناك عمل فى منجم ذهب . خطر لى أن أطلب منه خمسين جنيهًا كقرض . طبعًا سيرفض كأى صديق تطلب منه مالاً ولســوف يتهم التجـارة والسوق .. إلخ .. لماذا أتوقع أن يختلف ؟ ليست بيننا سوى ذكريات عابرة من أيام الجامعة فى أكسفورد . كنا نحلم بتغيير العالم للأفضل .

فتحت الخطاب بحذر .. هنا سقط شيك بمبلغ خمسين جنيهًا .

اضطرب قلبى شاعرًا بالراحة .. وقلت :

ــ « أنا ظلمتك يا جاك .. ما زال قلبك فى المكان الصحيح .. »

وقرأت الخطاب فوجدته قصيرًا كتب فى عجلة :

ــ « عزيزى جوف :

« يؤسفنى أن حظك متعثـــر ، وهـــذا يـــدل على أن لنـــدن ما زالت تعج بالحمقى ، حيث يعجز رجل بقدراتك عن النجاح . أعتقد أن المـــال هـــو ما سيحل مشكلتك فلا تتعجـــل إرجـــاع المال . ما سأقدمه لك فعـــلاً هـــو صديق يحمل خطاب تعريف منى ، وكل ما عليك هو أن تضع نفسك بين يديه . هو خبير فى مهنة النشر .. قال لى إنه ثرى جدًا لا يعرف ما يصنعه بماله ، وهو يحب رجال الدين فى الكنيسة لأنهم يرشدونه إلى سبل الإنفاق . أنا مدين له بالكثير وقد حكيت له عنك . هو قادر على عمل أى شىء بماله .

المخلص بوفليس

الدموع كانت تغرق عينى وأنا أتأمل توقيعه . كان اسم بوفليس هو اسم تدليل نطلقه عليه أيام الكلية . كان اسمه الحقيقى هو جون كارنجتون . يمكننى الآن دفع الإيجار وشراء بعض العشاء وإشعال نار فى غرفتى ..

فتحت الخطاب الأزرق الطويل الذى يبدو رسميًا . ما هذا الذى فيه ؟

رحت أعيد القراءة بينما الحروف ترقص أمام عينى . مستحيل أن يكون الثراء بهذه السهولة . لكن هذه الأنباء تبدو حقيقية !

-2-

قرأت كل حرف مما كتب . هل جننت ؟ هل أنا محموم ؟.. أم أن هذا حقيقى ؟

أنا لم أعد متسولاً .. لقد صار العالم كله ملكى !

كان الخطاب من موثقى عقود بريطانيين ، يخبراننى أن قريبًا لأبى الذى لا أعرفه تقريبًا ، قد توفى فى أمريكا الجنوبية ، وترك لى كل وصيته .

هذا مبلغ خمسة ملايين جنيه إسترلينى .. والموثقان يتوقعان أن أتصل بهما بسرعة هذا الأسبوع .

خمسة ملايين !.. أنا الصعلوك الجائع !... الذى لا صديق له ولا أمل .. لابد أن هذا تخريف بسبب الجوع . رباه !.. وأنا الوحيد على وجه الأرض من ينال هذه المنحة ..

انفجرت أضحك غير مصدق ..

يا لصاحبى المسكين بوفليس ..! منذ دقائق أعطانى خمسين جنيهًا وهاهو ذا يستردها بسرعة خلال دقائق مع خمسين جنيهًا

إضافية . يمكننى كذلك الاستغناء عن صديقه الثرى فأنا لست بحاجة له .. يمكننى شراء كل شىء وشراء ما أريد من ألقاب . يمكن شراء الحب والصداقة فى هذا العصر ..

يمكننى أن أنشر أعمالى .. بل وأعلن عنهـا .. بل وأشق طريقى إلى دوائر المجتمع الثقافية العليا ، ولسوف أسخر بشدة ممن قللوا من شأنى يومًا .

هنا تذكرت أننى لم أفتح الخطاب الثالث ..

كان مزركشًا بماء الذهب . أخذته وقلبته بين أناملى شاعرًا بنفور لا تفسير له . فتحته فقرأت هذه السطور :

ــ « أنا أحمـل خطاب تعريف مـن صديقك مستر (جون كارنجتون) الموجود حاليًا فى ملبـورن . يسعدنى التعرف بشخص ذكى مثلك ويسرنى أن أمر عليك اليـوم بين الثامنة والتاسعة .

المخلص لوتشيو رومانيز »

كانت هناك بطاقة أنيقة كتب عليها :

ــ « الأمير لوتشيو ريمانيز . جراند هوتيل .. »

يا لعواء الريح ويا لصراخ الكمان فى الغرفة المجاورة ! .

تذكرت أننى فى مأزق الآن .. هناك أمير سيأتى الآن لزيارتى فى هذا الجحر .. كيف أبدو ثريًا ؟.. لو كانت معى ستة بنسات لأرسلت برقية حالاً أعتذر عن اللقاء ..

قلت لنفسى إننى لن أقابله .. سأفر وأتظاهر بأننى لم أتلق رسالته ، ثم أطلب موعدًا معه عندما تصير ظروفى أفضل ..

فجأة انطفأ المصباح وعم الظلام .. وفى الظلام سمعت صوت حوافر حصان تتوقف بالخارج .. ثم صوت خطوات وصاحبة النزل تتكلم . وعرفت أننى وقعت فى يد الرجل الذى حاولت أتحاشاه .

-3-

انفتح البـاب فرأيت شخصًا فارعًا يقـف هنالك .. وسمعت صاحبة النزل تقول لى :

ــ « هذا جنتلمان يريد أن يراك .. »

كان الظلام دامسًا فقالت :

ــ « أعتقد أن مستر تمبست ليس هنا .. برغم أننى رأيته يصعد للغرفة . سوف أجلب ضوءًا حالاً .. »

انصرفت .. هنا سمعت الغريب فارع القامة يتقدم فى الظلام ثم يقول بصوت عميق قوى :

ــ « جيفرى تمبست .. أنت هنا ؟ »

هنا انحلت عقدة لسانى ... قلت له :

ــ « أنا هو .. لقد أردت أن تعتقد أننى لست فى الدار ، إذ ترى الظلام .. »

قال بصوت عميق يدل على بعض السخرية :

ــ « من الواضح أنك لست سعيدًا بزيارتى .. »

ــ « لا .. لكن الظلام ساد فجأة فلم أعرف كيف أعد المكان لاستقبالك .. »

ــ « أنا أمد يدى لك فى الظلام لأصافحك .. يمكنك أن تمد يدك أيضًا .. »

مددت يدى .. هنا دخلت صاحبة النزل حاملة مصباحًا .. وقد دهشت لما رأتنى .

أنا فارع الطول لكن الرجل كان أطول منى .. وإذ حدقت فيه خطر لى أننى لم أر وجهًا يجمع الجمال والذكاء بهذا الشكل . عينان عميقتان وكتفان عريضتان جديرتان بهرقل .

قال لى :

ــ « للأسف أنا آتى دومًا فى وقت غير مناسب .. أرجو أن تسامحنى ... »

ومد يده لى بخطاب يحمل خط صاحبى (كارنجتون) . وأجلس نفسه .. تأملته بإعجاب متقشب ..

قلت له :

ـ « صديقى أرسل لى يتكلم عنـك بأفخم العبـارات .. لكن سامحنى يا سيدى قد حسبتك أكثر شيخوخة مما تبدو .. »

قال فى خفة :

ـ « ليس هناك شيوخ هذه الأيام يا صاحبى .. لا أحد يتكلم عن السن فى المجتمعات الراقية . السن ليس موضوعًا مهذبًا .. أنا فعلاً مسن .. لن تتصور كم أنا مسن !.. »

ـ « بل أنت تبدو أصبى منى .. »

ثم فتحت الرسالة .. فقرأت التالى بخط صديقى :

ـ « الأمير ريمينيز أكاديمى متميز وجنتلمان . ينتمى لأسرة أوروبية عريقة ، وسوف تحب دراسة تاريخ أسرته .. لقد فقد الكثير من ثروته . سافر كثيرًا ورأى الكثير .. شاعر وموسيقار بارع وخبير أدبى .. »

لم يكن الخطاب حميمًا كأنه تم إملاؤه .. كما أنه لم يحمل توقيع صديقى المعروف (المخلص بوفليس) . لكنى تظاهرت بأننى لم ألحظ هذا ورحت أعتذر لزائرى عن فقر المكان . هنا قال لى فى بساطة :

ـ « أنا هنا كى أكون صديقًا لك .. فهلا تبعتنى إلى الفندق لتتناول العشاء معى ؟ »

كنت قد بدأت أرتاح لهذا الرجل ، فوافقت على الفور .. لكن قلت له :

ـ « أولاً دعنا نتكلم قليلاً .. لابد أنك عرفت عنى من صديقى كارنجتـون ، وتوقعت أن تجـد رجـلاً فى أتعس حالات الفقر والبؤس .. هذا كان صحيحًا منذ ساعتين .. »

وناولته خطابًا موثق العقود .. فقرأه فى تهذيب ثم أعاده لى وقال :

ـ « يجب أن أهنئك .. برغم أن هذه الثروة تبدو لى ضئيلة ويمكن أن تتلاشى خلال تسعة أعوام .. هى لا تحصنك للأبد ضد الفقر .. فى رأيى أن دخلك يجب أن يكون مليونًا فى العام كى تتفادى العمل فى الورشة !.. »

نظرت له فى حيرة غير عالم هل هو يمزح أم يتكلم بجدية ..

ضحك وقال :

ـ « جشع الإنسان يا صديقى لا يتوقف أبدًا .. يشتهى هذا ثم ذاك .. هناك نساء يمكنهن أن يرحنك من هذه الملايين بسرعة البرق .. سباق الخيول كذلك . أنت لست ثريًا يا صديقى .. فقط لم تعد حاجاتك ملحة كما كانت ، وإننى لأشعر بخيبة أمل .. لأننى كلما وضعت آمالى على شخص وجدته مخيبًا للأمل .. »

ثم وضع يده على كتفى وقال :

ـ « أعتقد أنك موافق على دعوة العشاء ؟ »

نظرت لثيابى فى خجل وقلت :

ـ « لست مؤهلاً لمرافقتك أيها الأمير .. أبدو كصعلوك .. »

هز رأسه فى فهم وقال :

ـ « بالفعل تبدو كذلك .. لكن المظهر لا يهم .. المعطف الذى يلبسه رئيس الوزراء نفســه بال عتيق .. لا أحد يهتم بالمظهر سوى المغرورين والبؤساء .. سوف يتصرف الخياط معك ، لكن أطلب منك خدمة هى أن تجعلنى أنا محاسبك فيما يتعلق بكل تعقيدات المصارف والعقود .. »

وافقت على الفور .. وكتبت خطابًا لصاحبة النزل أخبرها أن الإيجار سيصلها غدًا بالبريد ، ثم وضعت مخطوطة كتابى تحت إبطى . هكذا تركت بيتى للأبد بكل ما فيه . لو كنت أعرف المستقبل لتحسرت على كل لحظة عشتها فى هذا البيت ، لكن الجهل بالمستقبل نعمة حقيقية .

-4-

كانت عربة الأميـــر المزركشة بالذهب تقـــف فى الخارج ، يقودها جوادان مطهمان أسودان نفد صبرهما من الانتظار .

شعور الفخامة بالداخل جعلنى أشعر كأننى تركت كل معاناتى وماضىّ من خلفى . وفى ظلام العربة رأيت عينى مرافقى القويتين تتفحصان وجهى . قال لى :

ـ « لقد عرفت رجالاً كثيرين .. مملكتى واسعة فعلاً .. »

ـ « إذن أنت تحكم فعلاً يا أمير .. لقبك ليس شرفيًا .. »

ـ « أنا أحكم حيثما يوجد أناس يطمحون للثروة .. لا يمكن شراء الفضيلة إذا وجدت . الأصدقاء يسموننى لوتشيو .. »

ـ « هل هذا اسمك المسيحى (اسمك الأول) ؟.. »

قال فى امتعاض :

ـ « مسيحى ؟.. لا .. لا يوجد اسم مسيحى فى عقيدتى . لا أؤمن بوجود شخص واحد مسيحى .. أنت لست مسيحيًا .. الناس تتظاهر بكونها كذلك وهذا يوقعهم فى أشر أنواع الهرطقة .

لكننا سنواصل هذا الحديث فيما بعد .. ما يعنينا حاليًا هو الظفر بوجبة ممتازة .. »

استقبلونا باحترام فى الفنـــدق ، وإن لاحظت نظـــرة الخدم المهذبة لمنظرى الرث .. وقـــد أعلنت عن رغبتى فى الحصول على غرفة بالفندق . كان مضيفى يقيم فى جناح من الفندق فيه مكتبة وغرفة طعام وغرف للخدم .

كانت المائدة معدة .. وعليها أفخر أنواع الأطباق والكئوس وأدوات الطعام ، وعليها أجمل الأزهار والفواكه . راح تابع الأمير يقدم لنا الطعام ، ولاحظت أن له سحنة شريرة غير مريحة .. لكنه كان يقدم الطعام والشراب بكفاءة فلمت نفسى على الشعور بالنفور تجاهه . كان اسمه أميل ..

كانت أروع وجبة ذقتها فى حياتى . وجبة يقضى الذواقة عمره يبحث عنها فلا يجدها .

بعد العشاء مع السيجار سألنى مضيفى :

ـ « هل تنوى الاستمرار فى الكتابة بعد ما صرت ثريًا ؟ »

قلت له إننى راغب فى ذلك ، خاصة أن الثراء قد يفتح لى طريق الشهرة . فسألنى عن موضوع الرواية التى كتبتها . قلت له :

ـ « هى قصة رومانسية تتحدث عن أرقى شىء فى الإنسان وأنبل العواطف .. تهدف إلى أن تسمو بالعقول .. »

ابتسم فى سخرية وقال :

ـ « لا يصلح .. يجب أن تكون القصة ذات طابع جنسى يظهر الناس كبهائم لا هم لها سوى التناسل .. أؤكد لك أن هذا سيعجب النقاد جدًا .. ولسوف تقرؤها العذارى فى خدرهن مشغوفات . من وضع فى ذهنك أن تكتب عـن أشياء نبيلة ؟ لا توجد أشياء نبيلة فى العالم .. الناس لا تريد أن تقرأ أشياء نبيلة فى القصص .. بل يذهبون للكنيسة لو أرادوا ذلك ، حيث يموتون مللاً . ولكن دعنا من هـذا ولنـرَ كيف نمضى باقى الأمسية .. أم أنك ترغب فى الراحة ؟ »

الحقيقة أننى كنت مرهقًا فعلاً وقد ثقل رأسى من النبيذ . قلت إننى راغب فى النوم . وهكذا جاء الخادم ليأخذنى لغرفتى .

قال لى صديقى الجديد قبل أن أذهب مع إميل لغرفتى :

ـ « فى الغد تعرف الكثير عن هذا العالم .. وربما تفكر فى الزواج .. أنا سأقودك إلى كل الأماكن التى يمكن أن تجد فيها زوجة طيبة . بالطبع لندن هى أفضـل هـذه الأماكن . يجب أن

تتذكر أن الأنثى كائن غير كامل .. كائن بلا روح .. هى أنثى الرجل فقط وليس من حقها أن تختار .. »

هنا أضاء البرق المكان .. ثم دوى الرعد ..

كانت الغرفة واسعة منسقة وفاخرة الأثاث ، تدفئها نيران مريحة . لم أكن قد اعتدت هذا الحظ الحسن فى حياتى ومنذ مولدى . وقف الخادم ينظر لى متسائلاً إن كنت أريد شيئًا .. شعرت بأنه يجب أن أبقى هذا الكائن بعيدًا عنى ..

نزعت ثيابى أمام المرآة مصغيًا لصوت المطر ، وقلت لنفسى :

ـ « جيفرى تمبست .. أنت رجل مجدود الحظ .. ثرى وسيم وصغير السن مكتمل الصحة .. إن العالم أمامك .. »

استلقيت على الفراش المريح .. وغبت فى أحلام جميلة ، لكنى صحوت مرتين شاعرًا كأن هناك مـن يقف فى الغرفة يسترق لى النظرات .. وفى مرة خُيِّل لى أن الأمير ينادى خادمه إميل ..

فى الصباح قابلت لوتشيو .. قلت له إننى ذاهب لمقابلة موثقى العقود اللذين لديهما ثروتى ، فقال لى :

ـ « ليس من الحكمة أن يشعرا بأنك مفلس أو أن تطلب دفعة مقدمة من المال . سوف أعطيك بعض المال وتذكر أنك وعدتنى بأن أكون محاسبك .. وفى الطريق يجب أن تمر على خياط بارع .. »

ثم ناولنى 500 جنيه كمصروف جيب . حكيت له عن مال كارنجتون الذى أرسله لى فقال :

ـ « خمسون جنيهًا !... ليس صديقك كريمًا جدًّا خاصة أننى أعرف أنه وجد منجمًا غنيًّا فى أستراليا قبل سفرى .. »

قلت له :

ـ « هذا مبلغ فادح لا أريده .. »

ـ « من الأفضل فى هذه الأيام أن يكون معك الكثير من المال على ألاّ يكون معك مال .. »

ودعته شاكرًا واستقللت عربة ذات حصان منطلقًا إلى شارع بيزنجهول حيث ينتظرنى الموثق .

استقبلنى الموثقان فى حفاوة ودفعا أجر العربة ، وعرفت منهما أن هذا القريب الذى لا أعرفه كان يشفق علىَّ لأننى يتيم .. لهذا ترك لى ثروته كلها ، وهى وصية لا يمكن الشك فيها . هكذا أمامى عشرة أيام إلى أن أملك كل شىء .

قال لى الموثق فى حرج :

ـ « إن قريبك رجل محترم لكننا لا نعرف أى شىء عن الطريقة التى كوّن بها ثروته .. كان فى أيامه الأخيرة فى مصحة وكان يقول شيئًا عن بيع نفسه للشيطان ... للدقة كان يتكلم عن صفقة عقدها .. »

ضحكت كثيرًا وقلت :

ـ « هل حقًا ما زال فى زمننا المتحضر هذا من يؤمن بوجود الشيطان ؟ »

قال الموثق وهو ينظر لزميله :

ـ « نشعر براحة لأننا ذكرنا لك هذا الجزء .. »

فارقت الرجلين الشبيهين بتوءمين .. وقد وعدانى بأن يسديا لى العون كما أسدياه لقريبى . عرضا علىَّ مبلغًا من المال إلى أن أسـوى التركة ، لكنى رفضت وأنا أشعر بامتنان لصديقى لوتشيو الذى أعفانى من هذا الجزء . اتجهت للباب مع الخادم وأعطيته بقشيشًا ممتازًا ليشرب كأسًا فى صحتى .

أنا مليونير .. خمس مرات مليونير !

قضيت الصباح أبتاع ثيابًا وجدت قياسها مناسبًا ضمن جملة حظى الحسن . ثم أرسلت لصاحبة النزل إيجارها المتأخر كاملاً وأضفت خمسة جنيهات على سبيل الشكر لكرمها معى .

عدت للفندق فأخبرنى أحد الخدم أن الأمير بانتظارى لتناول الغداء معى .

دخلت عليه فوجدته واقفًا عند النافذة وفى يده شىء زجاجى لم أفهمه .. حييته وسألته عن هذا الشىء فقال :

ـ « كائن أليف أربيه .. هل رأيت شيئًا كهذا من قبل ؟ »

تفحصت الصندوق الصغير الذى يحمله فوجدته بغطاء زجاجى ، ومثقوبًا لدخول الهواء . بالداخل كانت حشرة ملونة ذات أجنحة لها كل ألوان قوس القزح .

ـ « هل هى حية ؟ »

ـ « حية وذكية .. هى ودود وتعرفنى .. »

ومد إصبعه فى العلبة .. ثم أخرج إصبعه لتقف الحشرة عليه وراح يهزها كى تطيـر .. حلقت عبر الغرفة ثم دارت عائدة لتستقر على يد مالكها . قال الأمير :

ـ « كنت واقفًا أثناء نزع أكفان مومياء مصرية لأنثى .. كانت مزينة بالمجوهرات .. وعندما نزعت الأكفان المعطرة وجدنا فجوة فى صدرها . فى هذه الفجوة كانت تلك الحشرة .. حيّة . وبكامل ألوانها .. »

شعرت بهزة عصبية .. وقلت :

ـ « هذا مخيف .. بصراحة لو كنت مثلك لتخلصت من هذا الشىء الشرير .. »

ـ « ولمه ؟.. أخشى يا عزيزى أنك لا تملك حاسة علمية .. هذه الحشرة انتزعت حياتها من صدر الأميرة الميتة .. ومنذ آلاف السنين . لكنى أفهم نفورك من هذه الحشرة .. لو سمحت لى لقلت إن لدىَّ نظريةٍ تتعلق بتناسخ الأرواح . لربما كانت الأميرة المصرية روحًا شريرة تجسدت فى هذه الحشرة .. »

شعرت بذعر وتأملت صديقى فارع الطول وسيم الملامح ، فى إضاءة الغرفة الشتائية الضعيفة . خيل لى بالفعل أن عينى الحشرة ذكيتان تلمعان .

أغلق العلبة وقال :

ـ « الآن إلى الغداء .. تبدو لى بحال طيبة ، لذا أعتقد أنك أتممت أعمالك المالية بنجاح .. »

-5-

ثلاثة أسابيع مرت كأنها دوامة من الإثارة ، وعندما انتهت وجدت من الصعب أن أتذكر نفسى كما كنت بالمقارنة بالشخص المتأنق الذى صرته . كتابى موشك على الصدور .. لكنى لم أكن سعيدًا . كتابى كان يحمل معتقدات تختلف عن معتقداتى كلية .. لقد قدمت صورة مختلفة عن نفسى للمجتمع ، مثل الإيمان والمثل العليا .. إلخ .. كل هذا لم أعد أؤمن به لكنى كتبت عنه .

الحقيقة أننى فى عصر ذلك اليوم شعرت بتعاسة لا مبرر لها ولا تفسير . لقد كنت ثريًّا وكانت الحياة أمامى .. صرت شهيرًا جدًّا وتقريبًا تكلمت عنى كل جريدة فى لندن ، وهذا ترتيب لوتشيو طبعًا .

كنت أرفض أى طلب لقروض أو عــون .. واستمتعت فعــلاً بذلك . لم يساعدنى أحد فى محنتى فلماذا أمد يد العون لأحد ؟

كنت مكتئبًا .. ولكن لوتشيو راح يقنعنى أن كل الأحيــاء يكذبون بشــكل أو بآخر .. هــذا الكوكب ضيق جدًّا لا يتسع إلا لهوميروس واحــد وأرسطو واحــد وشكسبير واحد .. لكنك تناسب هذا العصر وهذا المجتمع ..

قال إنه سيدعونى الليلة إلى المسرح حيث نقابل إيرل إلتون فى مقصورته ... إنه رجل ثمل مصاب بالنقرس ، لكن ابنته ليدى سيبيل من حسناوات إنجلترا المعدودات .

رحبت بالدعوة فأنا أسعد كلما أتيحت لى فرصة التواجد مع لوتشيو بعيدًا عن عالمى الخاص الكئيب .

نظرت لوجهه الوسيم وقلت له :

ـ « ألا تلاحظ أن الناس ينظرون لك كثيرًا يا لوتشيو ؟ »

ـ « نعم لا ألاحظ . ولماذا ينظرون ؟.. كل امرئ مشغول بمشاكله فلا وقت لديه كى يهتم بآخر حتى الشيطان نفسه .. النساء ينظرن لى كثيرًا من منطلق إعجابهن الدائم بشخص ذى حضور قوى .. »

ثم أضاف فى خبث وببرود شديد :

ـ « أنا مؤمن أن ليدى سيبيل للبيع .. لكن عروض الأسعار لم تصل لمبلغ مغر بعد .. لكنى لن أشترى .. أنا أمقت النساء . لقد آذيننى كثيرًا . لديهن القدرة على مساعدة الخير لكنهن لا يفعلن ذلك . إنهن أقل حساسية من الرجال وبلا قلب . خطايا

البشر جاءت بسببهن ، لذا أكرههن أكثر . ألم تلحظ أن كل شيء فى الكــون محكم الصنع ما عــدا الإنسان ؟.. هل تعرف معنى هذا ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « سوف نتكلم عن هذا فيما بعد .. العشاء بعد ساعة .. »

* * *

لا يمكن أن ينسى أى رجل لقاءه مع الجمال المثالى . ربما يقابل بعض الوجوه الساحرة أو المريحة ، لكن هناك لحظة يرى فيها بؤرة الجمال المذهلة التى تفوق هذا كله .

لقد قهرتنى سيبيل بلا أى أمل فى النجاة من سحرها .

اصطحبنى لوتشيو إلى مقصورة الإيرل بين فصلى المسرحية ، وكان الإيرل رجلاً أصلع محتقن الوجه له سوالف مشعثة . عرفت فيما بعد أنه مدين للوتشيو بمبلغ كبير . كان جمال ابنته مبهرًا كما قلت ، وإن خالطته لمسة من البرود واللامبالاة تدل على رقى منشئها ..

انحنت فى خفة تحيينا . بينما راح أبوها يتكلم عن المسرحية التى لم أعِ حرفًا منها . طلب لوتشيو أن ينفرد بالإيرل لبعض المواضيع المالية ..

هكذا وجــدت نفسى مع الليــدى وحدنا ، وقد سألتنى عن معرفتى للأمير لوتشيو فقلت إنه صديق قديم . قالت :

ــ « هو رجل وسيم ومؤثر فعلاً .. »

بالطبع كلامها صحيح . لكن بم يشعر رجل يجلس مع فتاة جميلة تتكلم بإعجاب عن رجل غيره ؟

سألتنى :

ــ « هل أنت مستر تمبست الشهير ؟ »

ــ « هل تعرفين اسمى ؟.. إن كتابى لم ينشر بعد .. »

ــ « أى كتاب ؟.. لم أسمع قط أنك تكتب . فقط أعرف مستر تمبست المليونير الذى تتكلم عنــه الصحف . فى الحقيقة أنت شاب وسيم .. »

شعرت بخجل من هذه المبالغة فقالت :

ــ « أنا أعنى ما أقــول .. كل المليونيرات يصيرون أغبياء شديدى القبح مع الوقت لكنك تختلف .. »

انتهت المسرحية وقــد صرنا صديقين ، ونلت شرف أن أوصلها لعربتها بينما مشى لوتشيو مع الإيرل . قال لى الإيرل وهو يودعنى :

ــ « تعال وتعش معنا .. تعال وتعش .. تعال يوم الخميس . زوجتى مشلولة للأسف وأختها هى التى تدير بيتنا .. لا خوف من أن أتزوجها لو ماتت زوجتى لأنه لا أحــد يتزوج الخالة شارلوت . لكن هناك حسناء أمريكية شابة ربما أتزوجها .. »

لم أفهم الكلام ، لكنى لمحت نظرة ضيق عابرة من سيبل عندما ذكر أبوها الفتاة الأمريكية .

لما رحلوا سألنى لوتشيو عن رأيى فيها فقلت إنها باردة بعض الشىء .. قال :

ــ « هى باردة فعلاً ، لكن الجليد غالبًا ما يغطى البراكين . على كل حال معظم هذه الألقاب مفلسة تبيع نفسها لأول مشترٍ حتى لو كان سوقيًا .. على الأقل أنت لست سوقيًا لأنك لا تعرف من أين جاء مالك !.. »

قلت له :

ــ « هذا صحيح .. تصور أن قريبى كان يعتقد أنه صار ثريًا بعد صفقة مع الشيطان ؟ »

انفجر لوتشيو يضحك وقال :

ــ « تخيَّل فى هذا الزمن !.. هناك شخص ما زال يعتقد بوجود الشيطان . فعلاً لابد أن صواميل عقل قريبك قد تفككت .. والآن سأتركك لأننى وعدت بلعب القمار فى نادٍ قريب .. »

لم أرغب فى مرافقته .. كنت أريد أن أخلو بنفسى لأتذكر وجه ليدى سيبيل .

-6-

قال لى الناشر الأريب مورجسون إنه سيطبع 250 نسخة من كتابى .. احتججت على هذا العدد الضئيل ، فقال إنه سيهدى هذه النسخ للصحفيين والمراجعين ، وبعد هذا يعلن أن الطبعة الأولى نفدت وأنهم بصدد عمل طبعة ثانية .. لن يعرف الناس أبدًا إن كان قد طبع 200 أم 2000 نسخة . وهكذا ينتظر السوق الطبعة الثانية متعطشًا .. كما أنه أوحى لمن يكتبون عن الرواية أن يقولوا كلامًا مبهمًا يفهم منه أنها مشينة ..

سوف تستمر الطبعات وكل واحدة 250 نسخة ، وهكذا نصل بسرعة للطبعة العاشرة ..

ذكر لى اسم ديفيد مكوينج وهو مراجع إسكتلندى مهم لابد من الاستعانة به لكى تنشر لى جريدة (القـــرن التاســـع عشر) مراجعة عن كتبى .

ــ « يجب أن تتصل بماكوينج وإلا انقلب عليك .. »

وعندما عدت للفندق قال لى لوتشيو نفس الشىء ، لكنه قال إنه من الخطأ أن يتصل كاتب بناقد ويطلب منه الاهتمام بكتابه .. هناك طرق أخرى .

قال إنه يعرف مكوينج .. بالواقع هو يعرف كل من يستحقون أن يعرفهم المرء ، وقد قابله فى رحلة تسلق فى سويسرا ..

فى تلك الليلة أخذنى إلى بيت من البيوت التى يزجى فيها الأثرياء وقتهم باحثين عن مسرات محرمة .. هذه البيوت التى كانوا يطلقون عليها demi-mondaine . وهكذا عرفت مجتمعات القمار .

أدركت من اهتمام الناس بلوتشيو واحترامهم له أنه أقرضهم مالاً من قبل .. على الأقل هو يسيطر عليهم ماليًا .

دعيت للعبة الباكاراه مع شاب أشقر كريم المحتد عرفت ان اسمه فيسكونت لينتون . وقد لاحظت الاستهتار الذى يلعب به وعدم مبالاته بالخسارة . من الغريب أننى ظللت أربح وأربح .. لا أعرف كيف أشرح لكنى تمنيت فعلاً أن أخسر لينتهى هذا الجنون .. ليت هذا الحظ الشيطانى ينتقل لهذا الفيسكونت .

فى النهاية قال لى :

ـ « لقد نفد مالى كله .. يجب أن تمنحنى فرصة للتعويض غدًا يا مستر تمنبست .. »

هززت رأسى وقلت :

ـ « هذا يسرنى .. »

كاد الفيسكونت ينسحب لكن لوتشيو دعاه إلى أن يستمر فى اللعب .. ليحاول أن يعوض خسارته . قال الفتى إنه مفلس فعلاً ، فدعاه لوتشيو إلى أن يلعب على شىء بسيط .. روحه مثلاً !

انفجر الجميع ضاحكين فقال لوتشيو :

ـ « نحن فى عصر التقدم العلمى ، لهذا نؤمن أنه لا يوجد شىء اسمه الروح ... لو لعبنا على شعرة من رأسك لكان لها ثمن ، فهى على الأقل شىء مادى .. لكن اللعب على الروح معناه أننا نمزح .. »

هكذا بدأت اللعبة ..

لم يستغرق الأمر سوى سبع دقائق ، بعدها نهض لوتشيو معلنًا الفوز . وقال :

ــ « لو أن الأرواح لهــا وجــود يا عزيزى الفسكونت فأنت مدين لى بروحك .. لا أعرف ما عساى أفعل بها .. »

ابتسم الفيسكونت فى حزن ، وصافحنا ويده ترتجف ثم غادر المكان ..

ما أن انغلق الباب حتى تبادل الرجال الهمسات :

ــ « لقد خرب بيته .. »

ــ « إنه مدين بمبلغ مستحيل .. يقال إن ديونه بلغت خمسين ألفًا .. »

كانوا يتكلمون بقسوة وبلا تعبير على الوجوه . شعرت بأن المقامرين جميعًا يفقدون قلوبهم ومشاعرهم فى وقت ما . كنت أعرف أننى أزداد قسوة وأنانية هذه الأيام ، لكنى ظللت بعيدًا عن أن أكون مثل هؤلاء .

قررت أن أتصل بالفيسكونت هذا وأتنازل عن دينه لى .

هنا فوجئت بلوتشيو ينظر لى نظرته العميقة ، ثم طلب منى أن ننصرف ..

فى طريق الخروج قال لى :

ــ « تمسبت .. لو اخترت أن تتعاطف مع الأوغاد فأنا مضطر للتخلى عن صداقتك .. أنت تخطط لعمل ساذج أحمق .. وهذا الرجل لا يستحق أى كرم .. لا يجب أن يلقى عطفًا أكثر من أى كلب .. دعه ينل جزاءه .. »

كنا نمشى فى الشارع عندما رأيت شخصًا مألوفًا .. قلت فى دهشة :

ــ « هذا هو الفيسكونت نفسه .. »

قال لوتشيو :

ــ « لا تقترب منه .. ليس هذا بالوقت المناسب .. »

ــ « لكن أين هو ذاهب ؟.. خطواته مضطربة .. »

— « ثمل .. بالتأكيد ثمل .. »

هنا صاح الفيسكونت طالبًا عربة ذات جواد .. فتوقفت عربة أمامه . استقلها وابتعد . فجأة سمعت صوت طلقة رصاص تدوى من اتجاه العربة .

توقفت العربة وترجل الحوذى واحتشد رجال الشرطة والعمال .. صحت فى هلع :

— « ياللسماء !.. لقد قتل نفسه !.. »

وكدت أهرع لكن لوتشيو اعتصر يدى فى حزم وقال :

— « دعه يا تمبست .. هل تريد أن يطلبوك للشهادة فتفضح أمر النادى والمقامرين ؟.. متى مات الرجل فهو ميت ولا جدوى .. »

صحت فى رعب :

— « هل تمزح ؟ لوتشيو .. أنت بلا قلب .. هل تريد أن أرى هذا وأصمت بينما أنا سبب موته ، بحظى اللعين فى لعبة الباكاراه .. »

لكنه ظل يمسك بيدى فى حزم . وقال :

— « لا يوجد شىء اسمه حظ لعين .. لن نتورط فى قضية انتحار فالطبيب الشرعى لديه كلمتان تنهيان أى ضوضاء (جنون وقتى) .. انتهى الأمر .. »

لا أتصور أنه على بعد أمتار توجد الجثة النازفة لرجل كنت ألعب معه منذ نصف ساعة ..

ومشيت بطريقة سلبية مع لوتشيو عائدين إلى الفندق .

-7-

أخبرنى لوتشيو بشأن بيت جميل فى الريف اسمه ويلوزمير ، يمتاز بمناظر طبيعية خلابة .. ويطل على نهر آفون . ثمن هذا البيت بأثاثه خمسون ألف جنيه ..

ـ « هذا مكان يناسب مواهبك الشعرية والأدبية ، خاصة أنه موطن شكسبير .. »

ثم أضاف أن هذا المكان سيروق للإيرل والد سيبيل جدًا ..

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لأنه كان ملكًا له .. ثم وقع فى قبضة المرابين اليهود وباع البيت بسبب القروض .. تلاحظ أن المرابين اليهود هم الذين انتصروا على المسيحية فى النهاية .. اليهود ينتصرون دائمًا .. »

فكرت ثم قلت فى حماسة :

ـ « سوف اشترى ويلوزمير هذا .. هلا أعطيتنى بيانات البائع ؟.. سوف أبرق لمحامى كى يشتريه فورًا .. »

ـ « لكن ألا تتمهل ؟ يجب أن ترى المكان بنفسك .. »

ـ « حتى لو كان وكر فئران .. سأشتريه فورًا .. أريد أن يعلم الإيرل هذه الليلة أننى المالك الجديد لـ ويلوزمير .. »

تأبط ذراعى ونحن ذاهبان لقاعة التدخين وقال :

ـ « أنت رجل شديد العزيمة يا تمبست .. هذا يروق لى فى الرجال . التصميم .. حتى لو كان الرجل ذاهبًا للجحيم فأنا احترم القرارات السريعة .. »

وهكذا رحت أستعد للعشاء هذه الليلة فى بيت الإيرل ، وتأنقت قدر الإمكان ..

ذهبت مع لوتشيو .. توقفت العربة أمام بيت جميل فى زقاق خلفى . دخلنا البيت لنجد إيرل إلتون واقفًا وظهره لنار المدفأة .. وأمامه تربعت فتاة شابة بارعة الجمال لها قدمان صغيرتان . ذكرت القدمين لأنهما أول ما لفت نظرى . كانت هناك سيدة أخرى قدمها لنا الإيرل :

ـ « شـــارلوت .. اسمحى لى .. هـــذان الأميـــر لوتشيو والسيد جيفرى تمبست .. وهذه أخت زوجتى الآنسة شارلوت فيتزروى .. »

حيينا الآنسة . كانت عانسًا يوحى شكلها بالامتعاض والقرف .. جو عام من الفضيلة حولها كأنها رأت شيئًا شنيعًا فى حياتها فقررت أن تلوذ بالفضيلة . أما الفتاة الأخرى فقدمها لنا الإيرل :

ـ « ميس ديانا شيسنى .. أبوها واحد من ملوك السكك الحديدية فى الولايات المتحدة .. »

قال لوتشييو :

ـ « والدها صديق عزيز .. لقد التقينا فى واشنطن وكانت بيننا صداقة ممتازة .. »

قالت الفتاة :

ـ « حقًا ؟؟ تعرفه ؟.. لا يفكر إلا فى السكك الحديدية لدرجة أننى قلت له : بابا .. لو لم تكن هناك سكك حديدية على وجهك لكنت ألطف معشرًا .. »

ضحك لوتشيو لطريقتها المفاجئة فى السخرية من أبيها . فقالت ضاحكة :

ـ « أنت تعتقد أننى غير مهذبة .. اليس كذلك .. لكن أبى أقرب لمحصل تذاكر وهو يمقت التعامل معه بشكل رسمى ... »

كانت فى الواقع فتاة أمريكية فاتنة، ، تعرف كيف تنال إعجاب الرجال لكنها لا تستطيع الظفر بعواطفهم .

نظرت لى وقالت :

ـ « أنت إذن مستر تمبست الشهير .. من الممتع أن يكون المرء ثريًا وهو شاب . أن تصير ثريًا وأنت شيخ معناه أنك تملأ جيوب الأطباء والورثة .. عرفت سيدة عجوزًا ورثت مئة ألف جنيه وهى فى التسعين . بكت كثيرًا بسبب كل السعادة التى لن تنالها ... »

دارت محادثة شائقة أبدى فيها لوتشيو بعض آرائه الغريبة الساحرة . فجأة قاطعت مس شيسنى المحادثة ، وأعلنت أن سيبيل قادمة .

شعرت بقلبي يخفق لدى قدوم هذا الجمال . جلست في الحجرة فأعلنت أنها حزينة لما حدث للفيسكونت الذى انتحر . لاحظت في ضيق أنها لا ترفع عينيها عن لوتشيو .

وهكذا تأبطت ذراع ليدى سيبيل إلى مائدة العشاء . أدركت أنها ساحرة فعلاً لكن ذكاءها محدود .

حدثتها عن نيتى فى شراء بيت ويلوزمير فساد الصمت .. لاحظت أن مس فيتزوى تنهدت فى عمق . هذا هو البيت الذى ولدت فيه سيبيل .. لقد صار ملكى أنا ..

قالت سيبيل :

ــ « قضيت فى ذلك البيت أسعد أيام حياتى .. كنت ألعب فى الحقول فأقابل على الضفة الأخرى من نهر آفون فتاة فى سنى .. لكن المربيات كن يمنعننى من اللعب معها لأنها من طبقة أدنى من طبقتنا . عرفت اسم هذه الفتاة .. كان اسمها مافيس كلير .. »

نظر لى لوتشيو باسمًا وقال :

ــ « ألا تتذكر هذا الاسم يا تمبست ؟ »

تذكرت اسمها .. كانت أديبة لم أهتم بها كثيرًا . على كل حال لم أكن أثق كثيرًا بقدرة النساء على كتابة أعمال أدبية مهمة .

قالت سيبيل :

ــ « أنا حزينة لأننى لم أصادقها .. اليوم صارت هى أرقى منى بكثير . صارت كاتبة مهمة وتعيش هناك وقد ابتاعت الأرض التى حولها . وهى تكتب هناك .. »

سألت عما كتبته تلك المرأة فقال لوتشيو :

ــ « رواية واحدة .. لكنها خارقة للعادة .. »

تساءل الإيرل عن موضوع اهتمامى بالكتابة ، فقال لوتشيو فى استهجان :

ــ « إن ما كسبه من صيت بثرائه لا يكفيه .. يريد أن تقوم شهرته على النبوغ ... »

قلت فى ضيق :

ـ « أنا مؤلف فعلاً .. وعما قريب سأثبت جدارتى وأهميتى فى مصاف الأدباء . أعتبر الأدب أرقى المهن ولن يمنعنى شىء عنه .. »

عرفت من الحديث أن مافيس كلير كسبت الكثير من قلمها فقط ، وهى شديدة الكبرياء ..

أدركت من الكلام أن الإيرل مولع بالمال ، ويمكن أن يبيع ابنته فعلاً لمن يدفع أكثر . لكننى كنت أريد أن أنال حبها بحبى . وليس بمالى .

جاءت الليدى زوجته محمولة على مقعد فرحبت بنا .. كانت امرأة ظريفة ذات وجه مشرق .

سألت ابنتها سيبيل عن الأمير فقالت الابنة :

ـ « هذا هو الأمير لوتشيو صديق أبى .. »

نظرت المرأة للأمير بعض الوقت وتصلبت يدها .. ثم استدارت تسأل عنى .. ثم استدارت للوتشيو من جديد وسألته :

ـ « وجهك مألوف .. هل رأيتك من قبل ؟ »

وهنا اكتشفت أنها قابلته منذ زمن بعيد قبل الزواج .. سألته سيبيل عن سنه فقال إنه شيخ . لكن هذا غير باد على ملامحه .

دار حديث طويل تطرق للدين فسألته مس فيتزرورى إن كان يؤمن بالسماء ، فقال :

« لا تؤاخذينى .. أنا لا أؤمن بسماء رجال الدين .. لكنى أؤمن بالسماء . سماء مختلفة .. ويخيل لى أننى فى طفولتى كنت أسمع تسابيح الملائكة فى جنة عدن .. »

وبدا حزن واضح فى عينيه ..

ثم أنه اتجه للبيانو فجلس وراح يضرب المفاتيح بأنامله فارتجفنا .. لم نسمع قط صوتاً كهذا ... لقد سمعنا فى عزفه خرير الجداول وشقشقة الطيور والعواطف كلها ... وخفقات قلوبنا إذ نصغى ..

لقد سرت هذه الموسيقا فى دمى فجعلتنى فى حالة مذهلة من التهور .. الحقيقة الغريبة هو أن هذه الموسيقا كانت توحى ليس بالسمو بل الجريمة والشر .. توقظ أحط الأحاسيس فى روحك ..

صارحته بهذا فقال :

ـ « لا شك يا صاحبى أن هذه العواطف الشريرة فى نفسك أصلاً .. »

ـ « وربما فى نفسك أنت! .. »

فجأة سمعنا صرخة غريبة ..

نظرنا إلى الخلف فوجدنا الكونتة على الأرض تتشنج ...

-8-

فى طريق العودة ، حكى لى لوتشيو عن الكونته . قال إنه عرفها فى شبابها ، وكانت نزقة مندفعة وقد عرض أحد عشاقها على زوجها ان يسدد ديونه .. لما رأى لوتشيو دهشتى قال :

ـ « هذا معتاد فى الأوساط الراقية !.. »

ثم أضاف فى خبث :

ـ « الأغنية التى غنيتها كتبها قديمًا أحد عشاقها .. لقد أصابها الذهول عندما سمعت اللحن لأنها كانت تحسب أنها الوحيدة التي تعرفه . لهذا تشنجت وفقدت الوعى.. »

ثم أضاف :

ـ « دعنا من هذا ولنتكلم عن سيبيل .. أرى كم أنت مولع بها ولسوف أسعى جاهدًا لأزوجكها .. أنا راض كل الرضا عن هذه الزيجة .. »

* * *

تواصلت زياراتى لبيت الإيرل ، وصارت علاقتنا حميمة أكثر ..

سرنى كذلك أن لوتشيو قلل زياراته لهذه الأسرة ، وهذا ناسبنى جدًا . لا أحد يقاوم لوتشيو وما من رجل يقدر على منافسته .

سنحت لى فرصة دفع بعض الديون عن الإيرل ، كما قدمت هدايا كثيرة لسيبيل .

كان الشيء الوحيد الذى يهمنى فى تلك الأيام هو حبى لها . كانت فتاة غريبة الأطوار حقًا .. تفهم ما أحمله لها بالضبط لكنها تتظاهر بعدم الاهتمام . كلما حاولت أن اظهر بعض العاطفة كانت تبدى الدهشة وعدم الفهم . هؤلاء النساء يحملن قدرًا من القسوة لا بأس به ، ولا شيء يسعدهن قدر أن يمنحهن المرء حياته وشرفه .

كنت أمر بحالة عامة من عدم الرضا برغم أننى حققت الكثير فى حياتى . كان كتابى قد خرج للعالم فصار وحشًا يلتهم حياتى

بحضوره المخيف . فى كل صفحة من الجرائد أجد إعلانات ناشرى الكاذبة .. ومديح المراجعين !.. كل هذا كذب يفعمنى تقززًا .. يكتب ذلك الناقد ماكوينج عنى قائلاً إننى عبقرى اللحظة ، وأننى مزيج من شكسبير وأسخيلوس ..

إن الرجل يعمل جيدًا بالخمسمائة جنيه التى نالها . وقد تحمس نقاد كثيرون لكلماته فكتبوا عنى بدورهم وأرسلوا لى مقالاتهم .. شكرتهم ودعوتهم للعشاء . كانوا يعودون لبيوتهم وقد طار صوابهم من الوليمة والشمبانيا .

لكن الجمهور لم يبد متحمسًا للكتاب ، وظلوا ينظرون لى باعتبارى المليونير الكبير فقط . دون اعتبار لأهميتى كأديب . وكانت العبارة التى أسمعها دومًا هى .. » أنت كتبت كتابًا .. أليس كذلك ؟؟ لم أقرأه بعد .. سوف أفعل ذلك .. »

ابتعت فى نفس الوقت بعض كتب مافيس كلير . سألت المؤلف عما إذ كانت تعلن عن كتبها فقال لى ضاحكًا :

ـ « لا .. هى أشهر من أن تحتاج لدعاية !.. »

شعرت بحسد شديد من هذا الكلام . ورحت أقرأ الكتب فوجدت أنها موهوبة حقًا ولديها أفكار ذكية . هكذا قابلت لوتشيو فيما بعد فناولته أحد الكتب وقلت :

ــ « هذه امرأة موهوبة .. بالتأكيد لا تدفع خمسمائة جنيه لناقدك المرتشى هذا .. »

قال لى :

ــ « لكنها تظفر بهجمات شرسة فى الصحف .. »

أثر الكتاب على حياتى كثيرًا ، فاعتل مزاجى وصرت ضيق الصدر بما أطالعه عن نفسى وعن كتابى ، ورحت أتردد على دور اللهو والحانات بلا توقف .

قال لوتشيو :

« أى خطأ ارتكبته تلك الفتــاة ؟.. أنت مليونير وهى فتاة كادحة تعمل كنحلة . كسبت شهرتها بذكائها وليس بمالها .. »

قلت فى ضيق :

ــ « لا أحب الأديبات عامة .. »

قال :

ــ « لماذا ؟.. هل كنت تريد أن يبقين جاريات عند الرجال تحت رحمة شهواتهم ؟.. أنت تغار من شهرة هذه الفتاة ومن نجاحها وهذا شىء أفهمه .. »

ــ « لا أريد أن أراها .. »

ــ « سوف تراها بالتأكيد لو عشت فى ويلوزمير .. »

* * *

كانت الأمور تسوء فى بيت الإيرل ..

كانت سيبيل تبكى بلا توقف .. وعرفت أنها خائفة من سحر تشيسنى .. كانت تؤمن أن أمها ستموت عن قريب من ثم يتزوج أبوها تشيسنى .. بهذا تصير الأخيرة زوجة أبيها ..

ثم سألتنى وهى ترتجف :

ــ « أين صديقك الأمير؟ .. لم يعد يزورنا .. »

حكيت لها أن لوتشيو يكره البشر وليس له أصدقاء .. بل إنه ينفر من النساء بشدة ..

قالت فى شرود :

ـ « إذن هو لن يتزوج أبدًا .. »

ـ « أبدًا .. »

هنا نهضت فى عصبية وسحقت زهرة كانت تمسك بها وهتفت :

ـ « لماذا لا تهيننى الآن ؟.. لماذا لا تقول إن اختيارك الملكى وقع علىَّ أنا للزواج ؟.. لماذا لا تبرم الصفقة وتشترينى بدلاً من تعذيبى بهذا الصمت ؟ هاتان الذراعان وهاتان الشفتان للبيع .. »

كانت على وشك الإصابة بنوبة هستيرية فهرعت أركع أمامها وصحت :

ـ « صه .. سيبل يا عزيزتى .. أنت مرهقة فعلاً .. مستحيل أن تكونى مدركة لما تقولين .. ماذا تحسبيننى ؟.. وما كل هذا الهراء عن البيع والشراء ؟ أنا أحبك فإذا كنت ألزم الصمت

فلأننى لا أستحقك .. أنت خير منى .. خير من أى رجل . ماذا أقول سوى أننى سقطت فى حبائلك وأحبك حبًا أخشى التفكير فيه ... »

ثم رحت أرتجف فأحاطت عنقى بذراعيها ... ونظرت لى .. عيناها لا تعكسان الحب بل هى عاطفة أقرب للخوف . لكن سدود تماسكى انهارت .. وصرت ضعيفًا جدًا ..

ابتعدت عنى ثم سألتنى :

ـ « بم شعرت الآن ؟ وأنت بين ذراعى ؟ »

قلت فى حماسة :

ـ « شعرت بكل مباهج الحياة والأبدية ..»

قالت وهى تبتسم :

ـ « غريب .. أنا لم أشعر بأى شىء !.. أؤكد لك .. لا شىء .. أنا امرأة عصرية ليس بوسعى إلا أن أحلل وأفكر .. »

ـ « لا يهمنى أن تحللى ما دمت ستكونين لى .. »

ـ « أنت لا تعرف من أنا .. أنا فتاة من طبقة عليا مخصصة للبيع بالثمن الذى يطلبه أبى . سوف تحتج .. لا شك عندى فى أنك تحبنى مثلما يحبنى أى رجل آخر .. أنت منجذب لجمالى وشبابى لكنى أشعر بأنى مسنة جدًا فى قلبى . من حقك أن تعرف هذا إذا كان بوسعك الحصول على واحدة أخرى مثلى .. لن أقول أفضل منى لأننا جميعًا متشابهات .. »

قلت لها فى لهفة :

ـ « أنا أحبك ولا أريد سوى الزواج منك .. نحن فى مارس .. هل توافقين على الزواج فى يونيو ؟ »

ـ « لا مانع .. فقط خذنى بعيدًا عن هذا البيت المخيف الكئيب . لكن دعنى أؤكد لك أننى لا أؤمن بالحب ، ولو لم تكن أنت ثريًا لما قبلت الزواج بك !.. »

-9-

سر لوتشيو كثيرًا عندما اخبرته بالأمر وبموافقة سيبل .. كان يعبث بتلك الحشرة القذرة التى يسميها (الروح) ، فلما رآنى أعادها للعلبة ، وقال لى إننى حققت انتصارًا عظيمًا بأن أخضع أجمل فتيات إنجلترا وأكثرهن غرورًا ..

كان يعرف ما أعرفه وهو أننى بموهبتى فقط ما كنت لأقدر على الوصول لها .

سألته وهو يداعب تلك الحشرة :

ـ « لماذا تكره النساء يا لوتشيو ؟ »

ـ « لأن بوسعهن أن يمنحن الفضيلة والخير لكنهن يتخلين عن هذه القـدرة .. بسببهن يرتفع الرجال للجنة أو يهوون للجحيم ، وأكثرهم يتبعون الطريق الأخير .. »

لم أكن سعيدًا بتلك الموافقة من سيبيل ..

أنا أتهكم على الدين لكننى تمنيت أن أجد بعضه عند زوجة المستقبل . سخرت مـن الحـب لكن تمنيت أن أناله منها .

وسرعان ما أعلنت الصحف عن الزواج المرتقب بين سيبيل الحسناء ابنـــة الإيرل وجيفـــرى تمبست المليونير الشهير . ما زالوا يذكرون وصف المليونير لا المؤلف !

لم أبع من كتابى أكثر من 2000 نسخة ، بينما كان كتاب مافيس كلير يبيع الطبعة رقم 13 . صارحت ناشرى بهذا فقال :

ــ « عزيزى . أنت لا تعرف ذوق الجمهور ولا مزاجه ، ولست أول كاتب تمجده الصحافة وبرغم هذا لا يبيع .. لا يمكن أن تلومنى على هذا ، مع العلم أن كل المراجعين فى الصحف يشيدون بك .. لعل الناس لا يثقون بالنقد ويفضلون ان يكونوا رأيهم الخاص .. »

فى إبريل قمت بزيارتى الأولى لويلوزمير .. كان مصممو الديكور قد أبلغونى بقرب انتهاء العمل .

ذهبت مع لوتشيو هناك .. شعرت بأننى أبتعد عن دخان وتعاسة بابل العصرية إلى السلام والهدوء . لقد ابتعت هذا البيت باستهتار وبلا تدقيق ، لكنى أعجبت به ووجدته يوحى بالسلام والجمال .

ومن بين الأشجار كنت أرى نهر (آفون) يتلوى كشريط فضى .. شعرت كأن ثقلاً ينزاح عن كاهلى وأن بوسعى أن أتنفس . هنا ولدت حبيبتى سيبيل وهنا ستعود كزوجة لى .

قلت للوتشيو فى حماس :

ــ « لولاك لما قابلت سيبيل ولما ابتعت هذا البيت .. ولما شعرت بكل هذه السعادة .. »

ــ « يفهم من هذا أنك سعيد ؟.. كنت أعتقد أن أتعس الناس طرًا فى العالم هم الأثرياء .. »

ــ « وهل أنت تعس ؟ »

نظر لى فى عمق وقال :

ــ « هل أنت كفيف ؟.. هل ترانى سعيدًا ؟.. هل خدعت بالقناع الذى وضعته على وجهى لأبدو سعيدًا ؟.. أما عن ثروتى فهى تفوق أى تصور لك . يمكننى شراء ممالك كاملة ولا أزداد فقرًا .. يمكننى أن أملك العالم لكن قيمته ستظل كما هى لى .. لا تتجاوز ذرة غبار . عندما يثور الموج فى البحر ويزحف على

الشط ، فهو يحاول أن يظفر بالإنسان .. يحاول أن ينظف الكون منه !.. »

قلت له :

ـ « أنت شخص غريب يا لوتشيو .. ثمة شيء فقدته لا يستطيع الثراء أن يعوضه .. لربما تثق بى يومًا .. »

ضحك طويلاً ووضع يده على كتفى وقال :

ـ « سوف أخبرك يومًا ما .. »

ثم دعانى لجولة فى الغابة نصغى لغناء البلابل إلى أن يأتى موعد القطار ، وعرف منى أننى أزمع إقامة حفل الزفاف فى الأسبوع الثانى من يونيو . طلب منى أن نجتاز ممرًا بين الأشجار ...

بعد قليل من المشى وجدت أننا نقف أمام كوخ جميل عتيق ، وسط الأشجار يحيط به سور خفيض .. نظر لى وقال :

ـ « الآن تمالك أعصابك يا تمبست .. نحن نقف أمام بيت امرأة تكرهها بشدة .. إنها مافيس كلير !!.. »

- 10 -

صعد الدم لوجهى وتوقفت فجأة .. وقلت :

ـ « فلنعد .. »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « أنا لا أعرفها ولا أريد أن أعرفها .. ثم إن النساء المعاصرات يثرن اشمئزازى لأنهن فقدن أنوثتهن .. »

ـ « ليس مافيس كلير .. إنها عتيقة الطراز نوعًا .. ليست من طراز المعاصرات .. لابد أن نقابل هذه المرأة العبقرية .. »

ـ « عبقرية ؟ »

ـ « هذه الثرثارة الأنثوية إذن .. دعنا نقابلها .. سوف أدق الجرس وأرى .. »

اتجـه للباب بينما وقفت عازمًا على ألا أرافقـه داخـل البيت لو دعيت . هنا سمعت صوتًا ضاحكًا موسيقيًا يصيح :

ـ « تريكسى أيها الصبى الشقى !.. أعدها واعتذر !.. »

اجتاز لوتشيو السياج وقال لى :

ــ « هى ذى !... إنها قــادرة على أن تسـبب الذعــر لأى رجل !.. »

ألقيت نظرة لأرى ما يتكلم عنه . رأيت فتاة شقراء تلبس ثوبًا أبيض وتجلس فى كرسى من الخوص وفى حجرها كلب صغير مدلل يمسك بقطعة بسكويت كلاب . وقربها كلب سان برنار يهز ذيله فى غيظ .. الكلب الصغير تريكسى سرق البسكويت من الكبير واحتمى بسيدته .

مستحيل أن تكون هذه هى مافيس كلير ..

الكتاب الذى قهر نجاحى والذى قرأته مرارًا يحتاج إلى أن يكون كاتبه أقوى شخصية وأقوى بنية من هذا . هذه لا يمكن أن تكون مافيس .. لابد أنها زائرة أو سكرتيرة ..

جاءت وصيفة شابة تقابلنا عند الباب فسألها لوتشيو :

ــ « هل مس كلير هنا ؟ »

ــ « نعــم سيدى .. لكن لا أعتقــد أنها ستقابلك مــن دون موعد .. »

ناولها بطاقة خاصة به وقال :

ــ « أعتقد أنها سترغب فى لقائنا .. فإن لم ترغب فنحن الخاسران .. »

تنحت الوصيفة جانبًا وسمحت لنا بالدخــول وهى تبتسم :

ووجدت نفسى أتبع لوتشيو برغم أننى صممت من قبل على ألا أدخل ..

من الداخل كــان البيت أكبر وأفخم مما بدا من الخارج وقد ازدان بلوحات رائعة . فى كل صوب كانت هناك صور للمشاهير موقعة منهم شخصيًا . قال لوتشيو وهو يتأمل المكان :

ــ « واضح أن مس كلير تجذب الناس لها من دون أن تكون ثرية .. هل تعتقد ان للعبقرية دورًا فى هذا ؟ »

هنا انفتح الباب .. وظهرت الفتاة التى رأيناها فى مدخل الحديقة ..

كانت تحمل كلبها المدلل .. هل هذه مافيس كلير فعلاً ؟... أم هى جاءت لتخبرنا أن القصصية لن تقابلنا ؟

هنا تقدم منها لوتشيو وقال :

ـ « أنا خجول من هذا الاقتحام لخصوصيتك يا مس كلير .. لكننا إذ مررنا ببيتك لم نستطع أن نقاوم .. »

ثم قدم نفسه لها وقدمنى كذلك قائلاً :

ـ « هو تمبست القصصى الشهير .. ولسوف يكون مالك ويلوزمير القادم . لو كنا قد خرقنا قواعد السلوك فإنى أرجو أن تسامحينا .. هلم !.. هذا سهل .. »

قالت ببساطة وهى تمد يدها لنا :

ـ « أنا قد تشرفت .. »

وأشارت لنا كى نجلس وقالت إنها تعرفنى من شهرتى . كانت بسيطة مرحة لدرجة أننى شعرت بخجل من نفسى ... فى الحقيقة كانت موهبتها هى ما أكرهه . قدرتها الفذة على مخاطبة العالم . لم تكن جميلة لكن لها سحرًا خاصًا يحيط بها .

دار حديث عام عن الطقس والأدب ، ثم أخبرها لوتشيو أننى سوف أزوج ابنة مالك ويلوزمير السابق .. سيبيل . كانت تعرف هذا من الصحف .

لاحظنا أن الكلب الصغير يجفل بشدة من لوتشيو .. فاحتضنته بين ذراعيها وقالت للرجل :

ـ « لم أر تريكسى يتصرف بهذا الشكل من قبل .. يبدو أنك لا تحب الكلاب يا سيدى .. »

ـ « أعتقد أنها هى التى لا تحبنى .. »

حملت الكلب إلى الداخل . ثم عادت ولاحظت نظرة غريبة فى عينيها .. كأنها ترى ما يخيفها فى محيا لوتشيو الوسيم .

حدث شىء مماثل عندما غادرنا المكان .. لقد اندفع الكلب السان برنار نحوها سعيدًا ، وفجأة تغير مزاجه وانقض نحو لوتشيو كأنه يريد تمزيقه إربًا . لكن لوتشيو بعقل حاضر أمسك بحنجرة الكلب وأزاحه جانبًا ..

قالت مافيس بوجه شاحب :

ـ « دعنى أمسك به .. سوف يطيعنى ... ارقد يا إمبرور .. كيف تجرؤ ؟ »

رقد الكلب عند قدميها وهو يرتجف ، فرفعت رأسها وقالت للوتشيو الذى بدأت عيناه تلمعان بشكل مخيف :

ـ « آسفة .. يجب أن أعتذر بسبب تصرف هذا الكلب برغم أننى لا أفهمه .. »

وفى الحديقة الغناء راحت تصفق بيديها فجاء حمام كثير .. كانت تعرف كل حمامة بذاتها ، وتطلق عليها اسمًا محددًا .. هذا الاسم يمثل أحد النقاد الذين ألهبوها بقلمهم فى الصحف . الصحف التى كانت تقول إنها بلا موهبة ، وإن من يعجب بكتاباتها هم بائعات المحلات فقط ! وكانت تطعم الحمام وتتسلى عليه .. أمام زوارها من الأمراء ونجوم المجتمع . كانت هذه طريقتها حتى لا تبالى بالنقد وتقبله بخفة .

قالت إنها كانت فقيرة جدًا جدًا .. اليوم لم تعد ثرية ، لكنها تكسب ما يسمح لها بكتابة منتظمة . كان النسيم يداعب غصون أشجار السوسن ، عندما انحنى لوتشيو يلثم أناملها ويقول :

ـ « وداعًا يا مافيس كلير .. »

نظرت له فى دهشة .. ثم قالت :

ـ « وداعًا .. »

وأدهشنى أنه لثم يدها برغم مقته للنساء كما قال . استطرد قائلاً :

ـ « لا تتغيرى أبدًا .. أنا سافرت فى كل صوب وقابلت كثيرين ، ودعينى أؤكد لك أن الشيطان لا يجرؤ على مهاجمة روح آمنة مثل روحك .. »

كانت تصغى له مهتمة وإن اندهشت لهذه الكلمات ، فتقدمت أنا وصافحتها . وتمنيت أن نكون صديقين . فقالت إنه لا يوجد سبب لنكون عدوين .. فى النهاية ذكرتنى أننى لو هاجمتها منتقدًا لصرت مجرد حمامة فى حديقتها !

-11-

كانت استعدادات الزواج على قدم وساق . وبدأت الهدايا تصل لسيبيل ولى . هذا نموذج لنفاق الطبقة الأرستقراطية هنا .. كل واحد يعرف مدى ثرائى الفاحش لكنهم يصرون على هذه الهدايا التافهة . ولو كنا زوجين فى بداية العمر لما كلف أحد نفسه بأن يرسل لنا هدايا .

كنت أفهم جيدًا أن هذه أنواع من الرشاوى الاجتماعية .. الذين يقدمون الهدايا يريدون أن تدعوهم إلى حفل الزفاف ، وبعد هذا يريدون أن يكونوا ضيوفًا دائمين فى أى مناسبة لنا .. أضف لهذا احتمالا الاقتراض منا فى المستقبل . لكنى لاحظت أنها تعلق أهمية خاصة على هدية لوتشيو .. وكانت على شكل ثعبان جسمه من اللؤلؤ ورأسه من الياقوت .. وكان يبدو كأنه يلتف حول عنقها عندما تلبسه ، وكأنه شىء حى .

كنت منهمكًا فى إعدادات الزفاف ، ومنحت نصف ثروتى لزوجتى القادمة مما أثار ذهولى حماى الذى مضى يحكى عن كرمى لكل الناس ، وراح يغازل الأمريكية علنًا وازداد تجاهلاً لزوجته المشلولة ..

لم أكن أقابل سيبيل إلا لمامًا بسبب انشغالها ، لكنها كانت دومًا تعطينى الانطباع بأنها تمنحنى حبها لأننى اشتريته ،، تسمح لى بمسك يدها لأنها صارت من ممتلكاتى .

وفى الوقت ذاته كان الناس قد نسوا كتابى المشئوم .. ولم يعد أحد يقرؤه . لقد فشلت فى جذب نظر الناس ، ولن يعود لى أحد طالبًا المزيد من هذه الكتب الشائقة .

أهدانى لوتشيو هدية زفاف هى جواد رائع الجمال اسمه (فوسفور) . قال لى إنه صالح ليدخل السباق وقال إن خادمه الشيطانى (إميل) سوف يكون الجوكى !

ــ « هل هو يجيد الركوب ؟ »

ــ « يركب الجياد كأنه الشيطان ذاته! .. »

وأبدى أفكارًا مهمة لحفل الزفاف .. والإعدادات اللازمة .. قال لى :

ــ « لا يوجد شىء إنجليزى يناسب الإنجليز !.. لابد أن تستورد الأطعمة من فرنسا .. فرنسا نفسها التى تسمينا بـ (إنجلترا الشريرة) .. لن يكون هناك شىء اسمه قائمة

طعام بل Menu .. يجب أن تحضر راقصات فرنسيات وفنانين فرنسيين لتسلى الجمهور البريطانى .. »

* * *

وفى مايو توجهت إلى ويلوزمير لأعد كل شىء للحفل . سوف يصل سرب من الزوار غدًا ..

كان الطقس دافئًا مشرقًا .. وقد وصلت هناك بالقطار مع لوتشيو .. كان موظفو المحطة يرمقونه فى إجلال عميق ، وفهمت أنه رتب مع الشركة قطارات خاصة لنقل المدعوين للزفاف .

لم أصدق الزينة والأضواء والرايات المعلقة فى كل صوب ...

قال لى لوتشيو :

ـ « سوف تجد كل شىء هنا محكمًا ومنظمًا بقدر ما تسمح به هذه الأرض ... »

كنت أنا فى حالة من الخرس .. عاجزًا عن توجيه عبارات شكر كافية له على كل هذه الترتيبات . قال لى وهو يرينى إعدادات الغرف :

ـ « المال يا عزيزى .. المال يفعل كل شىء .. تصير كالملك لكن من دون مسئوليات الملك وأعبائه .. »

قضيت ليلة فى هذا الجمال الذى يحيط كل شىء ... برغم هذا حلمت بأننى فقير مفلس .. وبرغم هذا كنت أشعر بسعادة لا شك فيها ..

عندما صحوت ورأيت الحدائق التى تغمرها الشمس شعرت بفخر لامتلاكى لهذا الجمال . حقا إن المال أهم شىء فى العالم .. لا قيمة للشهرة لو كنت مفلسًا ، ولا قيمة للموهبة .. فالصحف تعج بكتاب موهوبين .. ومفلسين .. قلت هذا لنفسى برغم أننى لم أكن مقتنعًا به جدًا ..

لحقت بلوتشيو إلى مائدة الإفطار ، فى غاية السعادة وشكرته على كل هذه الترتيبات .. يبدو أنه لا يعمل أى شىء إلا ويصل به لدرجة الكمال ..

ـ « لن يصل أول الضيوف قبل الواحدة بعد الظهر لأن هذا موعد القطار . سوف تكون الفرقة قد تأهبت للعزف وسوف يتم أول غداء فى الحديقة فى الثانية . سوف نقيم عمود مايو فى الحديقة على سبيل المرح .. »

حقًا كان العمود واقفًا هناك يذكرك بطريقة قرى شكسبير فى استقبال الضيوف ..

على أننى لاحظت أن كل الخدم والعاملين يبدون متصلبى الوجوه مكفهرين .. وأدركت أنهم جميعًا لا يفهمون حرفًا من الإنجليزية . الأغرب هو أننى لم ألحظ قدوم الموسيقيين قط .

فى الساعة الواحدة وصل أول الضيوف ، وكان بينهم سيبيل وأبوها .. وقد تقدمت لأتأبط ذراعها فى حب .

وقلت لها :

ـ « مرحبًا فى بيتك القديم يا سيبيل !.. »

بدا لى كأن عينيها امتلأتا بالدموع وهى تنظر للبيت الذى تم تجديده .

لما تقدمت أكثر انفتح ستاران من حرير لتفرغ سلة من الفل الأبيض على قدميها .

قالت لى :

ـ « أنت شاعر يا جيفرى كى تضع هذه اللمسات .. »

ـ « ليس أنا .. بل هى لمسات صديقى الأمير .. »

احمر خداها ومدت يدها للوتشيو وانحنت فى أناقة . وامتلأت القاعات بالضيوف المزعجين المنافقين . بدأ الغداء على أنغام الموسيقا العذبة ..

ثم ذهبنا إلى عمود مايو الذى يرقص حوله الراقصون .. الصبية يلبسون ثيابًا خضرًا رقيقة ، والفتيات يلبسن ثيابًا بيضاء شفافة .. وهناك تيجان من الفل على رءوسهن ..

قالت سيبيل فى انبهار :

ـ « هلا ناديت لى اثنين منهم ؟.. أريد الكلام مع هذه المخلوقات السماوية .. »

قال لوتشيو :

ـ « للأسف هذا يشرفهم يا ليدى سيبيل ، لكنهم لم يتعودوا على الكلام مع الضيوف .. إنهم محترفون لا يحسنون سوى الرقص ... لديهم أوامرهم وهم ينفذونها بدقة .. »

كنت أنظر لسيبيل الباردة ..

أنا أريد الحب .. أريد أن أتنفسه .. آكله .. أشمه .. لو لم أحصل عليه فلن يرضينى أى شىء ..

* * *

فى المساء كانت هناك فرقة مسرحية تقدم ثلاثة تابلوهات راقصة . وقد تزاحم القوم محبوسى الأنفاس ليروا هذا السحر .

لما انتهت المسرحية ومشينا فى الحديقة المظلمة دوى الرعد فجأة ، وهو شىء غير معتاد فى هذا الوقت من العام .. وجلسنا إلى موائد العشاء الفاخرة .

فى الثانية عشرة نهض لوتشيو ممسكًا بكأسه وقال :

ــ « أوشك الليل على الانتصاف ولسوف يرحل عدد كبير من أصدقائنا ، لذا أهنئ العروسين ، واقول إن المقولة القديمة عن أنك لا تستطيع أن تحصل على كل شىء زائفة . لقد جمع العروسان بين الثراء والحب .. وهكذا فازا بكل شىء .. »

تصاعد التصفيق وراح الرجال يرددون : .. « هيب هيب هوراه .. »

هنا سقط قلبى فى قدمى .. هل أتخيل أم أننى أسمع صوت ضحكات ماجنة مجنونة تدوى من بعيد ؟

عندما بدأ المدعوون يرحلون ، ومعهم رحلت سيبيل وأبوها(*) دخلت قاعة الاستقبال فوجدت لوتشيو وظهره لى ..

(*) واضح أن هذا ليس زفافًا .. بل هو عقد رسمى .

عندما استدار أدركت أنه ليس على ما يرام .. هناك نظرة إرهاق غير عادية مع حزن بالغ ..

قلت له :

ــ « لوتشيو .. هل أنت مريض ؟.. هل أرهقك جهد اليوم ؟ »

قال :

ــ « ليس هذا إلا سقمًا يندر أن يحدث للناس .. سقم غريب .. هل سمعت عن تأنيب الضمير ؟ »

لم أفهم ما يقصده .. وعرفت أن الراقصين والخدم والموسيقيين والممثلين رحلوا جميعًا .. هل تناولوا العشــاء ؟ قال لى نعم . الواقع أن الأمر كله بدا لى كعمل من أعمال الشيطان .. متى فعلوا ذلك ؟.. لابد أن عدد المشاركين فى المسرحية فقط ثلاثمئة شخص . قلت له إن الأمر يبدو كالسحر ..

قال :

ــ « لو كنت مصرًا على اعتبــار المال أداة سحرية فهــذا شأنك .. »

— « هناك أشياء لا يقدر المال على شرائها .. »

ثم قلت له إننى أحتاج لنوم عميق ، فقال وهو ينظر للأفق :

— « أنا مرهق دائمًا .. لكننى لا أقدر على الراحة .. لكن لا داعى للكلام الكثير .. اذهب إلى مخدعك فأنت بحاجة للراحة فعلاً .. »

- 12 -

ظلت الصحف تتكلم عن الحفل . كما يقول لورد بيرون :

« صحوت ذات يوم لأجد نفسى شهيرًا . ليس لموهبة خاصة او عمل بطولى » . ما حدث فى تلك الفترة كذلك هو أن حصانى فوسفور فاز فى سباق الديربى . كان منافسه (رأسًا لرأس) هو حصان رئيس الوزراء ، لكن إميل الحوذى استطاع أن يفوز .. أى أن شهرتى اعتمدت على حيوان يجرى على أربع .

فجأة دون أن أفهم ما يحدث وجدت نفسى أصافح أمير ويلز من أجل الإنجاز الذى قمت به .

كان الكل يحسد سيبيل ليس من أجل عريسها ، ولكن لأنها تزوجت ثلاثة ملايين .. أى أننى كنت مجرد زائدة لهذه الثروة .

للمرة الأولى أفارق لوتشيو منذ هبط على الحظ الحسن . كل شىء فى حياتى كان بفضله حتى عروسى نفسها .. قال لنا إنه يتمنى لنا أفضل الحظ وأنه سيكون أول من يرحب بنا لدى العودة لبيتنا فى سبتمبر .

قلت له :

ـ « سوف تكون أنت اكثر الضيوف الذين نرحب بهم .. »

كانت سيبيل تنظر لوجهه الوسيم فى إمعان وشحب وجهها جدًا .. قال لها :

ـ « وداعًا يا ليدى سيبيل .. سوف نفتقدك كثيرًا لكن الحب يقصر الزمن .. »

وانطلقت العربة مبتعدة فعرفت أنا وسيبيل أننا صرنا وحدنا .. سوف نعرف الإجابة عن سؤال الحب أو سؤال المقت ..

* * *

فى سويسرا على ضفاف تلك البحيرة ، عرفت أننى أحمق عندما افترضت أن هناك شيئا اسمه السعادة فى الحياة . ليس الذنب ذنب سيبيل .. لقد تزوجتها بكامل إرادتى ، وقالت هى لى :

ـ « أنا كائن ملوث .. كائن معروض للبيع للزوج الذى يدفع أكثر .. »

لقد برهنت هى عن هذا بشكل واضح . وشعرت بكراهية عميقة واشمئزاز من نفسى .. لقد كنت فى لحظات معينة أشعر

أنها فقدت جمالها وصار شكلها مريعًا .. وكانت تمضى وقتها فى قراءة أنواع الأدب النسائى الجديدة المليئة بالمشاهد الشهوانية .

دنا منى قارب ذو مجداف يركب فيه رجل فرنسى مسن ، توسل لى كى أستأجره لمدة ساعة . وافقت وركبت القارب وسرعان ما كنت أسبح فى بقعة ذهبية تعكس ضوء الغروب ، والماء بلون النبيذ .

برغم جمال سيبيل لم تكن تملك قلبًا على الإطلاق .. عرفت هذا بعد يومين من زواجنا . ففى باريس وصلتنا برقية تخبرنا بموت أمها .. لقد توفيت كونتيسة إلتون المشلولة يوم زواجنا . أبلغنا زوجها بهذا فى برقية وطلب من ابنته ألا تحزن لأنها عروس ..

لم تكن سيبيل بحاجة لتوصية لأنها بالفعل لم تبد أى اهتمام أو تظهر أسفًا .. فقط قالت :

ـ « ترى متى تصلنا بطاقات الدعوة لزفاف إلتون وتشسنى ؟ »

لم أتكلم وإن تشاءمت جدًّا لتوقيت الوفاة الغريب .

بعد شهر عرفت أننى تزوجت حيوانًا جميلاً خاليًا من العواطف ..

كنت غارقًا فى هذه الخواطر عندما انتهت الساعة ، فأعادنى النوتى للشط وأخذ أجره . عدت للفيلا التى أقمنا فيها وهى تخص الفندق المطل على البحيرة ، لكنها خصوصية .

رأيت سيبيل هناك تطالع كتابًا بين الأشجار ، فاتجهت لها ولثمت يدها وقلت لها :

ـ « سيبيل .. لماذا ونحن قريبان كل القرب ، نجد هذا الظلام بيننا ؟.. لماذا نتباعد ونختلف ونحن فى أنسب لحظات التقارب ؟ »

قالت :

ـ « أعتقد أن السبب هو أن فيك يا جيفرى شيئا أكثر نبلاً مما لدىَّ .. تتكلم عن أنسب لحظات التقارب .. هذه لا وجود لها . يجب أن يسجن الشعراء مدى الحياة بسبب خداعهم للناس .. أنا واثقة من أن بوسعنا الحفاظ على علاقة زوجية مقبولة حتى وإن خلت من الحب .. »

وتحررت من ذراعى .. وعادت إلى البيت ، ثم استدارت لى بإيماءة تشبه إيماءات القطط وقالت :

ـ « أنت دفعت مبلغًا باهظًا لتشترينى .. ولسوف أمنحك مقابل مالك .. »

كادت دمعة يأس تسيل منى ..

أنت شريرة يا سيبيل .. هل تعتقدين أننى بهذا الشر حقًا ؟

قالت لى :

ـ « فى هذا العصر الذى شك فيه العلم فى فكرة الله نفسها ، فلا شىء يدعى فضيلة .. من الأفضل لنا أن نكون سعداء من أن ننعم بالفضيلة .. يمكننا أن نعيش بهذه الطريقة ... »

هنا جاء الخادم يخبرنا بموعد العشاء . فقالت لى :

ـ « هلم .. لا تقطب بهذا الشكل .. نحن لم نتشاجر فلا داعى لأن نشعر الخادم بأننا فعلنا .. »

فى تلك الليلة نامت جوارى .. شعرت برعب شديد .. رعب من أن أخنقها كما يفعل المرء إذا رأى مصاص دماء ينام جواره ..

-13-

عدنا لإنجلترا أسرع مما توقعنا ..

خطر لى أن أعقد لقـــاء بين زوجتى ومافيس كلير ، لعل الأخيرة تقدر على تغيير فكر زوجتى وردها للصواب . كانت سيبيل تسخر من كل الأفكار النبيلة .. وبالفعل تم هذا اللقاء ..

كان اللقاء سهلاً لأن كلا المرأتين تعرف الأخرى من أيام الطفولة ، وقد أدركت أن مافيس كلير امرأة جميلة ذكية تختلف تمامًا عــن أخيلة المقاتة اللاتى يسموهن أديبات ويتكلمن عن المبيعات طيلة الوقت ..

دارت محادثة طويلة عن الأدب والمجتمع . أدركت بعده أن مافيس كلير تمثل انتصار الروح ، بينما سيبيل تمثل انتصار الشهوة . وعرفت من مافيس أنها لا تحمل تقديرًا كبيرًا لصديقى الأمير .. كانت كذلك مندهشة من خوف الكلاب منه ، ولم تكن ترتاح له البتة ..

لقد مرت الأيام وتعلمت أن أعامل زوجتى كما يعامل التركى امرأة فى الحريم . حيــوان جميل حسن التغذية . وفى الوقت

نفسه كانت ثروتى هائلة ، لذا توقعت أنه لن يحدث شىء لها .. ليس علىَّ أن أعمــل أى شىء لأكون نافعًا .. سآكل وأشرب وأسعد ..

لم أعد قادرًا على الإبداع . لم أجد قط حماسة كافية كى أمسك بقلم وورقة وأكتب عملاً جديدًا . أحيا بلا أمل ولا ضمير .. كنت أقضى أيامى فى ممارسة سلطاتى على الخدم والبستانى .. من حين لآخر أمارس نوع الكرم الذى يمارسه الأثرياء . أسأل عن زوجة البستانى .. او أقابل ابن السائس فى الحديقة فأدس نصف شلن فى يده وأتوقع أننى حجزت لنفسى قصرًا فى السماء بهذا العمل .

لم تكلف سيبيل نفسها بمشقة هذه الأفعال . كانت تمشى فى الحديقة ونقابل مافيس كلير فنجلس معًا لنتكلم أو نشرب الشاى . وكنت مع كلير أنعم بسلام نفسى عظيم ولا أحتاج للتظاهر بشىء .

عندما دعا دوق ويلز نفسه وحشدًا من رفاقه لزيارتى فى ويلزمور ، شعرت بحرج بالغ لاضطرارى للإقامة عدة أيام مع اشخاص لا أعرفهم . لقد تعاملوا مع سيبيل على كل حال بحكم

أصلها العريق على أنها تنتمى لهم ، أما أنا فقد تراجعت لخلفية المشهد تمامًا ..

الشخص الوحيد الذى كنت أنعم بصحبته كان أمير ويلز نفسه ، وكان يملك تلك الصفة الذكية التى تميز الجنتلمان الحقيقى سواء كان فلاحًا أو أميرًا .

فشلت تمامًا فى إقناع مافيس بحضور هذه الحفلات .. طلبت منى مرارًا أن أنسى الموضوع ، وقالت :

ـ « سامحنى .. أنا أحب الأمير .. كل واحد يحب الأمير لكنى لا أطيق معظم الحاشية المحيطة به ... »

وازدادت اعتزالاً فى كوخها . النتيجة هى أن الأمير بنفسه قصد زيارتها مع رفاقه ، وهناك سر كثيرًا لما رآها تطعم الحمام (أو جمهور النقاد الخاص بها) .

ظل ريماتيز مختفيًا فى ذلك الوقت ، لكنه أرسل لى خطابًا يقول :

عزيزى جيفرى :

أرجو ألا تعتبرنى فظًا لأننى لم ألحق بدعوتك .. لكنى أمقت الأسر المالكة . قابلت كثيرين منهم فى حياتى حتى صرت آمل

وجودهم . هم لم يتغيـروا منـذ عصر سليمان حتى العصر الفكتورى . سوف تعانى فى سبيل تسليتهم لأنهم جربوا كل شىء من قبل . سلّ الرجال بكثير من لعب الورق والصيد والتدخين .. لا تتعب نفسك بتسلية الأمير فهو يتسلى فعلا بمراقبة من حوله . لن ألحق بكم لكنى سآتى وحدى سريعًا بمجرد أن يرحل ضيوفك . تحياتى لزوجتك الجميلة .

ريمانيز .. »

عرضت الخطاب على سيبيل فلم تضحك لما فيه من سخرية ، وقالت :

ـ « إن لهجة السخرية منا واضحة فى الخطاب .. ألا تلاحظ هذا ؟ »

ـ « هو ساخر دائمًا .. لا أتوقع أن يتغير .. »

صمتت ولم تعلق .. وهو صمت لم أفهم سببه جيدًا وقتها ..

كانت علاقتنا تتدهور باستمرار ، ولم أكن اخفى عنها أننى أمقت طريقتها فى التفكير .. فكانت تنفجر فى البكاء وتدفن وجهها فى الوسادة قائلة :

ـ « تمقت طريقتى فى التفكير ؟.. ما الذى فعلته أنت كى يغير نظرتى للحياة التى اكتسبتها بإرادتى أو دون إرادتى ؟.. أنت فقط تأكل وتشرب وتنعم بحياتك وتحاول أن تبهر الناس بثروتك .. هذا كل شىء .. »

كنت أقول لها :

ـ « أنت غير منطقية . بل أنت الهستيريا نفسها .. »

ضحكت فى غلظة وجففت الدموع عن خديها كأن وهج عينيها تكفل بذلك .. وقالت :

ـ « هستيريا !.. الطريقة الممتازة الصالحة لتفسير كل شىء فى طبيعة المرأة !.. ليس من حق المرأة أن تملك أى مشاعر .. المرأة لعبة .. لعبة طفل أحمق .. تسل بها وعندما تتحطم ألقها جانبًا وابحث عن لعبة أخرى !.. »

كدت أرد عندما رأيت ظلاً فارعًا يظهر فى الحجرة وسمعت صوتًا مألوفًا يقول :

ـ « هل لى أن أدخل بما لى من حق الصداقة ؟ »

صحت :

ـ « ريمانيز !.. »

اتجه لوتشيو نحو سيبيل وقال :

ـ « هل مسموح لى يا ليدى سيبيل ؟ »

ـ « هل تسأل ؟ »

وزال كل الإرهاق والحزن من صوتها . وصافحته بكلتا يديها وأضافت :

ـ « أنت مرحب بك دومًا .. لقد تمنيت طويلاً أن أقابلك .. »

قال لنا :

ـ « أنا آسف لقدومى بلا موعد .. لكنى كنت أعبر هذه المنطقة وانبهرت بجمال المنظر وسحر الأشجار ، من ثم خطر لى أن أمر لأرى إن كنتما موجودين . ولحسن الحظ وجدتكما تنعمان بصحبة بعضكما .. الزوجان اللذان يستحقان أن أحسدهما لو كان من حقى أن أحسد مخلوقًا أرضيًا .. »

سألته ويدى على الجرس :

ــ « هل تناولت العشاء ؟ »

ــ « لقد أكلت شكرًا .. شكرًا لك . دعنى أقل لك إنك صرت بدينًا نوعًا ويبدو أنك ستصاب بالنقرس مثل أجدادك .. »

سألته سيبيل :

ــ « متى عدت لإنجلترا ؟ »

ــ « أمس .. كنت فى اليخت الخاص بى .. أحسبك لا تعرف أن لدىّ يختًا يا تمبست .. »

قلت له فى حرارة :

ــ « أنت يا لوتشيو خير صديق عرفته .. ويسعدنى دومًا أن تكون معنا .. »

نظر لسيبيل متسائلاً :

ــ « وما رأى الليدى ؟ »

قالت سيبيل :

ــ « رأى الليدى أن عليك أن تعتبر ويلزمور بيتًا لك فى أى وقت .. »

خرجت للحديقة فطوق لوتشيو كتفى بذراعه وقال :

ــ « هذه سيدة رائعة يا جيفرى .. أعرف أنه لا شىء يمكن أن يسعدنى مثل رؤية هذه الزيجة المتكافئة .. أرسل من يحضر حقائبى من المحطة فقد نويت البقاء .. »

-14-

قضينا أيامًا ممتعة مع لوتشيو .

برغم كل شىء لم أفتح قط موضوع سيبيل وتغير رأيى فيها ، ولعل سبب ذلك هو أننى أعرف بالسليقة ما سوف يقوله . لن يتعاطف معى ولسوف تتغلب هوايته للسخرية . لماذا أطلب الكمال فى زوجتى وأنا غير كامل ؟ . ولماذا أسمح لنفسى أن أنحدر لدرجة الحشرات وفى الوقت ذاته أطالب زوجتى بأكمل درجات الطهر ؟

كم كنت أعمى غافلاً عن تدابير القدر ، ولا ما يخبئه لى كل يوم يمر .

انتهى شهر أكتوبر ببطء وارتدت الأشجار لمستها الخريفية الذهبية والقرمزية .. كان الطقس دافئًا مما يسميه الفرنسيون (صيف القديسين) . كان الجو يسمح لنا بأن نتناول القهوة فى الشرفة كل ليلة . فى هذا الوقت حدث ذلك اللقاء الغريب بين لوتشيو ومافيس كلير .

كانت مافيس كلير تقبل دعوتى للعشاء فى مرات نادرة ، وفى تلك الليلة جاءت وتناولت العشاء معنا ، وخرجنا نمشى فى الغابة . هنا تذكرت أننى نسيت السيجار فى البيت فعدت لآخذه ..

سمعت من بين الأشجار الصوت المميز للوتشيو وصوت مافيس كلير . ابتسمت للفكرة .. لعل لوتشيو عدو المرأة قد وقع فى الحب .. لكن لماذا هذه المرأة بالذات ؟.. هى ليست جميلة بأى قياس .. لم لا يتركها وشأنها ؟.. هل أنا أغار عليها ؟

دنوت أكثر فرأيت بين الأشجار الشكل المميز للوتشيو يقف عاقدًا يديه على صدره ، ويقول لمافيس :

ـ « لو أصغيت لى لمنحتك النجاح .. أنت لست ثرية لكنى سأعلمك كيف تصيرين كذلك .. لديك أعداء كثيرون يحاولون تحطيمك .. يمكننى أن أجعلهم عبيدًا لك ... سوف أمنحك نفوذًا لم تنله امرأة من قبل .. لا أطلب شيئًا سوى أن تنفذى نصائحى حرفيًا .. »

كانت طريقته فى الكـــلام توحى بأنه مقـــدم على عمل خطير بمقته . وتساءلت عما ستقوله مافيس كلير .

قالت بعد صمت :

ـ « أنت نبيل أيها الأمير ريمينيز .. لا أعرف كيف تفكر فى أصلاً . لكن لم يساعدنى أحد من قبل .. ولا أعتقد أننى سأطلب معونة أحد .. أنا لست ثرية لكن من قال إننى أشتهى الثراء ؟ .. أن أحاط بقوم لا أعرف هل هم أصدقاء أم أعداء ؟.. أن يحبك الناس لما تملكه وليس لما أنت عليه . كثيرون يحبون كتبى وهذا كاف . أما عن أعدائى فلا يوجد شخص بلا أعداء . على المرء الذى يريد بعض الاستقلال أن يقبل أن يكون له أعداء وأن تكون ضده ضغائن ... »

سمعت صوت الأغصان تتحرك فدققت النظر .

لقد تقدم لوتشيو خطوة من مافيس كلير وعلى وجهه بسمة خافتة . وقد أضفى هذا لمسة ما وراء طبيعية على وجهه الوسيم . وقال :

ـ « أيتها الفيلسوفة .. أنت ماركوس أوريليوس نسائى لكنك لم تظفرى حتى اللحظة بشيء مهم : حب عاشق لك .. الرجال يخافونك لأنهم اعتادوا أن تكون النساء حمقاوات وهم لم يغفروا لك تفوقك واستقلالك . السنون تمضى .. وعما قريب تصيرين

عجوزًا وتجربين مرارة الوحدة .. لن تفهمى قصدى لكن بوسعى أن أمنحك الحب . سأجلب عند قدميك أكثر رجال البلاد كبرياء وغرورًا .. »

تراجعت للخلف فى رعب وقالت :

ـ « أنت تخيفنى !.. »

ثم أردفت :

ـ « أنـت تعطى وعـودًا توحى بأنك خارق للطبيعة .. من أنت ؟.. ما أنت ؟؟ لماذا أرتجف خوفًا كلما رأيتك ؟ »

وقف ريمينيز يرمقها بنظرة ثابتة .. ثم قال لها :

ـ « هناك خطر الوحدة .. »

ـ « لن أشعر بالوحدة أبدًا طالما فى الكون أزهار وطيور وكتب .. ونجوم فى السماء .. »

قال لها وهو يتقدم اكثر :

ـ « سوف تتذكريننى .. تتذكرين شيئًا من ماضيك .. عندما كنت أنـت ملاكًا وكنـت أنا ... لا ترتجفى .. لن أوذيك .. أنت

ترفضين مساعدتى .. لا بأس .. لكن أطلب على الأقل أن تساعدينى أنت .. صلى من اجلى .. أعرف أنك تصلين كثيرًا . عدينى أن تصلى من أجلى يا مافيس كلير .. »

أصغيت للمحادثة مذهولاً ... هل هذا هو لوتشيو الساخر الذى لا يبالى بشيء ؟..

هل هو الذى يركع كخاطئ أمام امرأة يطلب الغفران ؟؟

قال لها :

ـ « أنت خائفة منى .. لكنى أعدك أننى لن أؤذيك ولن ترى وجهى مرة أخرى ما دمت على وجه الأرض .. هذا قسم .. »

وأمسك بيديها وقال :

ـ « من حقك ألا تثقى بى .. لديك كل سبب يدعو لهذا .. أنا سيئ جدًا لكن عذرى الوحيد هو أننى لم أفسد أى شخص .. من فسدوا فسدوا بكامل إرادتهم الحرة .. عندما تتذكريننى تذكرى أننى أستحق الشفقة أكثر من أى بشرى مشلول ضعيف . عندما تصلين من أجلى تذكرى أنك تصلين لرجل لا يقدر على الصلاة .. والآن وداعًا .. لن أراك فى حياتك ثانية .. »

شعرت برجفـة وببـرد يسرى فى عظامى .. ثمة شيء فى وجهه غير بشرى ..

تراجعت مافيس وهى ترنو له .. حتى تلاشى فى الظلام ثوبها الأبيض .

كدت أنسحب فى هدوء بدورى لكنى سمعت لوتشيو يقول لى :

ـ « هيه أيها المتلصص !.. »

وأشعل عود ثقاب لامس به طرف سيجار وقال :

ـ « ما رأيته هو فاصل تمثيلى قمت به .. كنت أراهن على أنى أستطيع شراء مافيس كلير بالذهب لكنها رفضت .. هكذا طلبت منها أن تصلى لى .. كل النساء يعشقن الاعتقاد أنهن أنقذن شخصا ما بصلاتهن ... »

كنت أفكر فى أن هذا المشهد بدا لى حقيقيًا فعلاً .

-15-

صباح اليوم التالى الذى سمعت فيه محادثة لوتشيو ومافيس ، هوت علىَّ الصاعقة .. صاعقة بلا إنذار من أى نوع ..

كان هذا آخر يوم أشعر فيه بالكبرياء والفخار .

كنا قـــد تناولنا العشـــاء ، ثم شعرنا بالإنهاك فأخلدنا للنوم مبكرًا .. لابد أننى غفوت بعمق عدة ساعات .. صحوت كأن هناك يدًا غير مرئية هزتنى ..

صحوت من النوم فوجدت المصباح مطفأ ولم تكن سيبيل جوارى .. وثب قلبى فى الضلوع وشعرت بتوجس . كانت الحجرة خالية ..

هرعت واثبًا من الفراش فوجدت الباب مغلقًا لكنه ليس مغلقًا كما تركناه .. كانت الردهة خالية .

أمام غرفة النوم كان درج من خشب البلوط يقود لغرفة كانت معرض رسم فى السابق . كانت القاعة مضاءة بضوء القمر

الذى يتسرب من نافذة ذات زجاج ملون تشبه نوافذ الكنائس . رأيت خيالاً يتحرك وسمعت أصواتًا تهمس ..

عندما نزلت فى الدرج رأيت شيئًا حبس أنفاسى .. شيئًا فى الضوء الأحمر والأزرق المنبعث من ثياب القديسين المرسومين على الزجاج الملون . رأيت زوجتى راكعة وشعرها متنثر على كتفيها وأمامها وقف لوتشيو بقامته الفارعة .

ماذا يحدث ؟.. لا .. بالتأكيد هذه تمثيلية أخرى كما كان يمثل مع مافيس كلير .. سوف نضحك كثيرًا .

التصقت بالجدار وأنا أرمق الضوء الغامض على جبهة لوتشيو .. ضوءًا لا يمكن أن يكون انعكاس ضوء القمر .

هنا تكلمت .. زوجتى تكلمت .. سمعتها تقول :

ــ « أنت حبيبى .. أحبك يا لوتشيو وحبى لك يقتلنى . أحبنى ساعة .. ساعة واحدة .. ثم تخلص منى بعدها . أنا لك جسد وروح .. »

كانت تتوسل بطريقة مجنونة ..

قال لها :

ـ « أنت تتملقيننى لكنى غير قادر على رد المجاملة .. »

وبين حاجبيه ظهــرت سحابة مــن الازدراء .. وهــو يقول لها :

ـ « أعرف أنك تحبيننى .. عرفت من اللحظة الأولى هذا .. شممت رائحة روح مصاص الدماء العفنة من أول لحظة . عرفت أنك عرفت سيدك .. أنت تزوجت بكذبة على شفتيك .. أقسمت على الإخلاص لزوجك أمام الله بينما أنت تحلمين بالخيانة . القبلة التى منحتها لك فى الزفاف أشعلت النار فى دمك وجعلتك ملكى ... »

ثم قبض على معصميها وبدا عليه غضب شديد ، لدرجة أن العالم أظلم من حولهما .. وقال :

ـ « أنا أكرهك كما أكره كل النساء .. أنتن تدمرن العالم وتحلن الخير إلى شر . بفتنتكن تحلن الرجال إلى حمقى أو أوغاد أو مجرمين .

برغم كل شىء شعرت بأننى أحترمه ، فهو لم يخضع لإغراء هذه الشيطانة وقال لها ما يعتقده فعلاً . هذا الصديق لم ينو قط أن يخوننى أو يخذلنى .. إنه صديق حقيقى .

نهضت سيبيل وألقت بشعرها على كتفيها فصارت نموذجًا للفتنة وقالت :

ـ « لوتشيو .. الحياة قصيرة ولسوف نموت وينسانا حتى من أحبونا .. لماذا لا تغتنم اللحظة ؟ »

دنت منه خطوة فمد يده يوقفها محذرًا وقال :

ـ « لا تتقدمى خطوة أخرى يا امرأة .. انا أحذرك !.. ترى هل تجسرين على حبى لو عرفت من أنا ؟ »

كان السؤال غريبًا .. أثار دهشتها كما أثار دهشتى ..

قالت فى حيرة :

ـ « عندما أعرف من أنت ؟؟ أنت لوتشيو حبيبى .. الذى صار وجهه جنتى .. »

أشار للأرض ولمحت الخاتم الماسى فى يده . قال لها :

ـ « ما دام الأمر كذلك فلتركعى على الأرض وتعبدينى !.. »

هوت على ركبتيها وأمسكت بيده ...

حاولت أن أتدخل لكن قوة كاسحة جعلتنى أقف متصلبًا .

قالت له :

ـ « أنت سيدى وحبيبى .. لو شئت لمنحتك روحى .. »

قال لها فى سخرية :

ـ « هل عندك روح تمنحينها ؟ .. »

هنا تحركت كل طبيعة الحيوان الحاقدة فيها ، ونهضت واقفة والغضب المجنون فى عينيها وقالت :

ـ « أنت تسخر منى وتهيـن حبى .. لكن انتظر .. سـوف ترى وتتعذب .. سـوف أقتـل نفسى .. هـل تحسب أننى جئت بلا استعداد ؟ »

ومن صدر ثوبها أخرجت خنجرًا قصيرًا مزدانًا بالجواهر .. أعرفه لأنها تلقته هدية زفاف .

ـ « أحبنى وإلا قتلت نفسى هنا .. وصرخت قائلة لجيفرى إنك قتلتنى .. »

ورفعت الخنجر .

أمسك لوتشيو بيدها وانتزع الخنجر ثم ألقاه أرضًا . وقال :

ـ « مكانك كان المسرح يا مدام !... كنا وقتها سنعفيك من الأحكام الأخلاقية لأننا لا نطالب الممثلين بالفضيلة .. »

كان قد قذفها مسافة للخلف ، فتقدمت من جديد منه بخفة القطط وقالت ووجهها شاحب من الغضب :

ـ « لوتشيو رامينيز .. لقد تحملتك كثيرًا .. لكنى أعطيك إنذارًا حتى الغد . أحبنى ولسوف أظل ألعب دورى الاجتماعى السخيف . أما إن رفضت حبى فلسوف أتخلص من حياتى وأنا أعنى هذا . هل تفهم مدى قوة عينيك ؟ عينيك القاسيتين .. صوتك .. ابتسامتك .. »

ثم ألقت بنفسها إلى صدره وطوقت عنقه .. بأناقة حرر نفسه من ذراعيها ..

لم أتحمل أكثر فاندفعت بينهما لأنتزع زوجتى وقلت :

ـ « دعنى أنقذك من هذه المستهترة يا لوتشيو .. منذ ساعة كنت أحسبها زوجتى .. ثم وجدت أنها جارية ترغب فى تغيير سيدها .. »

-16-

وقفنا نرمق بعضنا .. أنا مجنون بالغضب .. لوتشيو هادئ .. زوجتى تتراجع ..

اندفعت نحوها وقد أعمانى الغضب وقلت :

ـ « سمعت كلامك .. رأيتك .. رأيتك تركعين أمام صديقى .. رفيقى المخلص .. تحاولين جعله شريرًا مثلك ... »

قالت سيبيل فى ثبات :

ـ « أنذرتك مرارًا قبل الزواج ، لكنك طمعت فى أن تفوز بابنة إيرل .. هذا يعطيك (البرستيج) الذى تحلم به .. نفس فخرك بحصان السباق الذى تملكه . يمكنك أن تطلقنى الآن لو أردت فلا فارق لدىَّ ... »

ثم استدارت لتبتعد وأنا لا أعرف ما أقول . قال لوتشيو بصوته الهادئ :

ـ « هــذا مؤلم .. لكن علىَّ أن أعتــرف برفضى لفكــرة الطلاق .. »

أمسكت بيده وقلت :

ـ « أنت صديق طاهر يا لوتشيو .. لقد سمعت المحادثة جيدًا وقد قلت أنت كل شيء .. »

ـ « يجب أن نتذكر أن ليدى سيبيل لم تخنك .. هى نقية كالثلج . بالنسبة للمجتمع هى طاهرة .. »

قالت سيبيل :

ـ « أنا لست مدينة لك بشيء يا جيفرى .. الصفقة عادلة .. أخذت منك مالك وأنت أخذت جمالى . والآن وداعًا يا لوتشيو .. وداعًا يا حبى .. »

صحت بها :

ـ « ألا تخجلين يا امرأة ؟.. . أمام عينى ؟ »

ـ « لِمَ لا ؟.. هــل رأيت من قبــل مثل هذا الجمال وهذه الهيبة ؟... كيف تتخيل أن تكون أمام امرأة مع هذا الرجل وتحبك أنت ؟.. . تحرك بعيدًا فأنت تقف بينى وبين إلهى !!!.. »

ثم نظرت لى فى ثبات وقالت :

ـ « على أن أودعك كذلك .. فليس من الممكن أن أعيش معك بعد كل ما سمعت ورأيت .. »

انفجرت فى الضحك وأشرت بإصبعى لبعيد وقلت :

ـ « ابتعدى .. لو شئت ألا أفتك بك فابتعدى .. أنت دمرت حياتى وقتلت كل شيء جميل .. ليتنى لم أرك قط .. »

لم تصغ لى .. كانت تثبت نظراتها على لوتشيو وهى تبتعد .

نظرت للوتشيو .. خيل لى للحظة كأن نارًا تلتهب تحت وجهه ثم اختفت .. قلت له :

ـ « يا صديقى .. أعتقد أننى سأموت .. لقد تحطم قلبى .. »

ثم غصت فى ظلام لا أعرف أين بدايته ..

* * *

يا لروعة الغياب عن الوعى !

النسيان التام .. زوال الذكريات !

عندما فتحت عينى وجدت أنى فى غرفة لوتشيو . أكبر وأوسع الغرف المخصصة للضيوف فى ويلزمور . كان القمر يغمر المكان بضوئه الشاحب وأنا اعود لعالم الوعى ..

نظرت لأرى لوتشيو جالسًا على مقعد يمسك بـ (مندولين) يداعب أوتاره بنغمات مرتجلة . قال لى :

ـ « لا ترهق نفسك .. ابق نائمًا .. »

هببت من الرقاد وقلت :

ـ « ظننتك سوف تنصحنى ألا أقتل نفسى !.. »

ـ « لا أرى داعيًا لهذه النصيحة .. خذ الأمور ببساطة !.. »

ـ « هل تطالبنى بأن آخذ شرفى ببساطة ؟.. »

ـ « يا صاحبى .. زوجتك تحب شكلى ولا تحبنى أنا .. فهى لا تعرفنى على الإطلاق . هذا شىء يمر سريعًا ككل أمراض النساء .. أما ما حدث فتم سرًا لا علنًا .. لهذا لا أفهم لماذا تعلق عليه هذه الأهمية . مفتاح التحضر هو أن تظل عيوبك سرية .. وبالتالى من حقك أن تفعل ما تشاء .. »

ثم مال علىَّ وقال :

ـ « بالطبع يمكنك الطلاق .. لكن لا أنصح بهذا .. ليس بعد أربعة أشهر من الزواج . ليس من المستحب أن تلقى للإشاعات بلقمة سائغة كهذه . والآن أنصحك أن تذهب لغرفتك وتنام .. »

أغمضت عينى وقلت :

ـ « أنام ؟.. فى تلك الغرفة ؟ حيث ..؟.. »

نهض لركن الغرفة فأخرج قنينة بها مسحوق أبيض وتناول كأسًا سكب فيه المسحوق مع بعض الشراب وقال لى :

ـ « هذه الجرعة سوف تساعدك على النسيان .. جرب ولسوف تحب هذا الشعور .. نم الآن وفى الصباح سوف نقرر ما يجب عمله .. »

شربت ما قدمه لى .. ثم رقدت فى الفراش الملحق بالغرفة .. وسرعان ما غبت عن العالم .

-17-

عندما نهضت فى الصباح ، أعددت حقيبتى وأشيائى وكتبت رسالة لسيبيل أخبرها فيها أننى راحل .. سوف أذهب للندن مع لوتشيو ، وسأكون فى فندق جراند . بينما يمكنها البقـــاء فى ويلزمور .. كمـــا يمكنها الحصول على نصف ثروتى كما تم الاتفـــاق فى الزواج .. لكنى سأحاول جاهـــدًا ألا أرى وجهها ثانية ..

أرسلت لها الخطاب فى غرفتها مع وصيفتها . لم تعد لى برد لكنها قالت إن السيدة مصابة بصداع . بالطبع تظاهرت بالتعاطف حتى لا تشك الوصيفة فى شىء ..

تناولت إفطارًا مع لوتشيو وقلت للخدم إننى سأتغيب بضعة أيام ، وسرعان ما وجدت نفسى فى القطار فى عربة التدخين . أتظاهر بقراءة صحف الصباح ثم أرجع ظهرى للخلف وأنام . قال لى لوتشيو :

ـ « أكرر أسفى .. بشكل ما أنا مسئول عما حدث .. ربما كان الأفضل ألا تراتى زوجتك أبدًا .. فكر فى رحلة لصيد النمور

فى الهند أو صيد الأفيال فى أفريقيا .. هكذا يفعل رجال كثيرون عندما تنسى الزوجات أنفسهن !.. تعال فى اليخت الخاص بى لمصر .. سوف نبحر فى النيل فى دهبية (مركب نيلى) وننسى تلك الكائنات المدعوة (نساء) .. لا لزوم لهن سوى أن نتسلى بهن ثم نتخلص منهن .. »

فكرت بعض الوقت ثم غمغمت :

ـ « مصر ؟.. لِمَ لا ؟ »

ـ « نعم . فكرة جيدة .. ارض الآلهة المنسية .. ربما تقابل أميرتى هناك !.. »

وصلنا للندن ونزلنا وسط الصخب وزحام العربات . توجهنا إلى مطعم سافوى ثم رحنا نراقب الناس فى الشوارع ونتسلى .. بعد هذا رحنا نناقش جوانب المستقبل . كانت كل الأماكن فى العالم متساوية بالنسبة لى . لذا بدت لى فكرة الذهاب لمصر مغرية .. قررت أن أذهب مع لوتشيو هناك حيث أمضى الشتاء . اقترح علىَّ أن نغادر بريطانيا خلال أسبوع .

جلس لوتشيو ينهى بعض الأوراق ، بينما جلست أنا أحاول مطالعة الجريدة .

هنا جاء صبى حاملاً برقية لى .. فتحتها فى لهفة فوجدت التالى :

احضر فورًا (قف) .. حدث شىء مروع لا أستطيع التصرف فيه وحدى (قف)

مافيس كلير

شعرت بقشعريرة وسقطت البرقية من يدى .. تناولها لوتشيو وقرأها .. ثم قال :

ــ « بالتأكيد يجب أن تذهــب .. هناك قطار الساعة 40 : 4 لو استقللت عربة للمحطة .. »

ــ « وأنت ؟ »

ــ « سأبقى فى فندق جراند .. ما كانت مس كلير لتتجشم هذه البرقية لو لم يكن الأمر خطيرًا .. »

لم أدر متى ولا كيف وجدت أننى أركب عربة للمحطة .. ثم وجدت نفسى فى القطار عائدًا إلى المكان الذى كنت فيه صباح اليوم ..

ماذا حدث ؟.. أى شىء مرعب دعا مافيس للاتصال بى ؟

وصلت للمحطة فلم يكن هناك من ينتظرنى . ركبت عربة إلى بيتى بينما الليل يرخى أسداله . رياح خريفية تعوى بين الأشجار كأنها روح معذبة ..

وعندما بلغت البيت رأيت ظلاً مألوفًا يهرع نحوى ..

كانت مافيس كلير ، ومنحنى مظهرها الملائكى راحة نسبية .. قالت وهى ترتجف :

ــ « أنت أخيرًا .. الحمد لله أنك جئت .. » .

-18-

أمسكت بيدها وتساءلت :

ـ « ماذا حدث ؟ »

رأيت أن القاعة مليئة بخدم امتقعت وجوههم رعبًا .. استدرت لمافيس وتساءلت :

ـ « ماذا حدث ؟.. قولى بسرعة .. »

قالت :

ـ « شىء حـدث لليدى سيبيل .. غرفتها مغلقـة ولا ترد . خادمتها جاءت بيتى مذعورة .. تعرف أن نوافذها عالية عن الأرض ولا يوجد سلم بهذا الارتفاع هنا . طلبت من الخدم تحطيم الباب لكنهم رفضوا خوفًا .. لذا اتصلت بك .. »

هرعت للطابق العلوى ووقفت أمام باب غرفة زوجتى وصحت بصوت عال :

ـ « سيبيل ! »

لكن لا صوت .. وقفت مافيس جوارى ترتجف ولحق بها بعض الخدم . استدرت لهم وواصلت النداء ... وقلت :

ـ « واضح أن ليدى سيبيل ليست فى غرفتها .. لكن هاتوا مطرقة قوية .. كان عليكم عمل هذا منذ ساعتين .. »

جاءوا بالأدوات اللازمة وانهالت الضربات المدوية على الباب الثقيل المصنوع من خشب البلوط . ثم انهار الباب أخيرًا ..

توقف الخدم وكذا توقفت مافيس لسبب مجهول .. نوع من التوجس غير المفهوم . رحت أتحسس فى الظلام بحثًا عن مفتاح النور .. شعرت بالمخمل تحت قدمى فأدركت أننى فى المخدع . لمست شيئًا باردًا طريًا فمددت يدى أفحصه ..

تراجعـت للخلف وأنا أنظـر للجسـد الذى جحظت عيناه الزجاجيتان ...

شهقت وقلت :

ـ « سيبيل ! زوجتى !.. »

لكن الكلمـات اختنقت فى حلقى . هـذا التمثـال الثابت هو زوجتى ؟؟

تضطجع على أريكة كأنه عرش ملكة ويدها تسترخى على المسند . ويد كأنها من شمع . هل هذه سيبيل ؟.. سيبيل كانت جميلة أما هذه فمرعبة بعينيها الزجاجيتين وشفتيها الزرقاوين اللتين تبتسمان ابتسامة شيطانية ..

دنت منى مافيس ففهمت القصة على الفور .. وركعت على ركبتيها باكية ..

فقلت لها :

ـ « ابتعدى عنها يا مافيس .. هى ليست بريئة .. هل ترين ضحكتها الشيطانية ؟.. لو سمعت كلامها ليلة أمس ! هواء الغرفة ملوث وسوف يسممك .. »

قالت والدموع فى عينيها :

ـ « أنت فى حالة تجعلك عاجزًا عن فهم ما تقول .. لم تحاول حتى معرفة كيف ماتت .. »

ـ « بل خمنت .. هذا سهل جدًا .. »

ومددت يدى وتناولت القنينة الصغيرة التى كتب عليها (سم) .. القنينة الصغيرة المفتوحة .

ـ « وهذه .. ورقة عليها كلمات .. بالطبع هى رسالة موجهة لى .. إنها كلمات مقدسة ، وأنت أديبة يا مافيس وتفهمين هذا .. لذا أطلب منك أن تتركينى .. »

قلت دامعة :

ـ « الله معك !.. »

وخرجت من المخدع .

جلست أمام سيبيل وقلت لها :

ـ « الآن يا سيبيل أنت وحيدة معى .. لن تخشينى بعد اليوم فأنا لا أستطيع أن أؤذيك .. »

وتناولت الرسالة التى تركتها لى ، ثم أشعلت شمعتين فبدت الرؤية أوضح .. ولاحظت أن فكها استرخى أكثر مع الوقت فبدت ضحكتها مرعبة فعلاً . قلت لها :

ـ « تكلمى يا سيبيل .. أنا هنا لأصغى ... »

هبت الريح واهتز لهب الشمعة .. وأدركت أن سيبيل سمعت ما قلت ..

* * *

كانت الرسالة تقول :

قررت أن أموت .. هذا خيارى الكامل وربما نتيجة للضرورة . لقد تعبت من المشاكل وتعب جسدى من العيش . يجب أن أنهى الأمر . فكرة الموت التى تتشابه عندى مع العدم تبدو جيدة جدًا . لا أرى سوى وجه حبيبى ولا أسمع سوى صوته .. لفترة طويلة كان هو كل عالمى وحياتى . لقد رحل .. ومن دونه لا يوجد كون .

كيف أتحمل بطء الساعات والأيام وحدى ؟

ربما كانت الوحدة أفضل لى من مرافقة هذا الأحمق الغارق فى الشهوات زوجى . لو كان قد أظهر لى بعض الحب فلربما بادلته حبى ، ولربما اعتذرت له لأننى تزوجته . لكنه عاملنى كأننى جارية مدفوعة الأجر ، وأنا لست مدينة له بشيء . أنا حرة فى أن أفعل ما أريد بهذا الشيء الذى فى داخلى والذى أدعوه (حياة) .

كانت الرسالة طويلة جدًا يصعب أن تصدق أنها كتبتها والسم يسرى فى عروقها ..

نظرت لوجهها الذى راحت ملامحه تتلاعب فى ضوء الشمعة ، وخطر لى أنها تشبه أمها كثيرًا بعد ما شوه الشلل ملامحها ..

لم أجسر على لمس الجثة .. لم أجسر على النظر لها . تناولت المذكرة التى كتبتها فى تحد صارخ للموت . أطفأت الشمعتين ثم غادرت الحجـرة وأنا أرتجف رعبًا والعرق يبلل ظهرى ..

كان علىَّ أن أرحـل .. عليها أن تجرب العالم الجديد الذى انتقلت له وحدها ، فأنا يجب أن أعنى بنفسى .

-19-

لم يحــزن أحــد حقيقة على زوجتى . فقط رفع الرجال حواجبهم وأشعلوا سيجارًا آخــر . النساء سررن للتخلص من منافس خطير .. بينما عمت الجميع سعادة لأن لديهم ما يتكلمون عنــه .

المجتمع ليس نقى النفس لدرجة أن يحزن حقيقة لفقد شخص متميز .. إن رحيل شخص متميز يفسح مجالاً لآخرين للصعود .

بفضل ما لدىَّ من ثروة تم إخفاء كل شىء يتعلق بانتحار سيبيل . هى ابنة إيرل .. لهذا شهد طبيبان أن وفاتها جاءت نتيجة غلطة .. بسبب تناولها جرعة خاطئة من دواء منوم . حرصت كذلك على إطعام الصحفيين ، والجنازة كانت مبهجة لأى حانوتى . انتعشت تجارة الورود لدرجة أن التابوت لم يعد ظاهرًا للعيان من كثرة ما ألقى فوقه من زهر .

لم تكن هناك حالة حزن صادق واحدة ، وحتى أبيها راق له أن ابنته رحلت فلن تعوق زواجه من ديانا شسنى .

كانت الجنـــازة مهيبة تحـــدث عنها الجميع ، وكان هناك صحفيون كثيرون غطوا الحدث . أعتقد أن وفاة زوجتى منحت السعادة لكثيرين . كانت فراشة جميلة لهذا لم تستحق أكثر مما تستحقه أى فراشة جميلة ميتة .

لكنى كنت مصرًا على أن ألقى مافيس قبل أن أرحل للشرق مع لوتشيو .

كانت جالسة فى منزلها أمام النار وكلبها (التريير) فى حجرها وجوارها كلب سان برنار . لما قابلتنى نهضت لتلقانى .. كانت تشعر بأسى من أجلى ومن الغريب أننى لم أشعر بهما لنفسى .

كانت ترتب الخشب فى المدفأة فقلت لها :

ــ « أنت تعرفين أن قصة الدواء المنوم هذه خرافة .. سيبيل قتلت نفسها فعلاً .. »

نظرت لى للحظة ثم قالت :

ــ « كنت أخشى أن تقول هذا .. »

— « لا يوجد شىء يدعو للخشية .. لقد فعلت هذا لأنها كانت غارقة فى حب صديقى لوتشيو .. »

وناولتها الاعتراف الذى كتبته سيبيل .. راحت تقرؤه والدموع تسيل من عينيها .. فلما انتهت من القراءة قالت لى :

— « لقد أعماك بريق الشهوات فلم تعد ترى عدوك الحقيقى .. ألا تفهم؟ . عدوك .. إنه لوتشيو ريمانيز هذا .. لا أعرف من أين جاء .. ولا من هو حقًا ، لكنى أؤمن أنه يجلب الشرور .. يتخفى وراء ملامح رجل وسيم ليدمرنا .. اتركه لو كنت حكيمًا .. اهرب ولا تتركه يرى وجهك ثانية .. »

غادرت المكان شاعرًا بحيرة .. كأنها تلومنى أنا ولا تلوم سيبيل . هى امرأة كأى امرأة أخرى . وتذكرت أننى كنت أكرهها قبل أن ألقاها وكتبت عنها مقالاً باسم مستعار مزقتها فيه تمزيقًا ، وبذا منحتها أعظم هدية يمكن أن تنالها كاتبة أنثى : حسد الرجل لها !

* * *

بعد أسبوعين كنت أقف على (الشعلة) يخت لوتشيو .. اليخت الفاخر الذى يفعم النفوس بالرهبة . رائع الجمال يجعل

الجميع يحتشدون ليراقبوا ويتساءلوا عن الكيفية التى يمخر بها العباب . كان اليخت رائعًا لكنى لم أحب الطاقم قط وبدوا لى يحملون شيئًا منفرًا لا أستطيع وصفه .

سرعان ما فارقت الساحل البريطانى كأنها خط أبيض طويل يمخر العباب . لقد تركت بيتى للإيرل والد سيبيل .. على الأقل كان هذا المكان له يومًا ما . سرنى كذلك أن ابنة ملك الطرق الحديدية الأمريكى سوف تعيش فى هذا القصر ، وترمق نفسها فى ذات المرآة التى كانت سيبيل تراقب نفسها فيها . لا أحمل أى ضغينة نحو ديانا تشسنى ، فهى سوقية لكنها غير مؤذية وسوف يحبها الناس فى ويلوزمير .

أما عن الخدم فقد صرفت كلاً منهم بعد ما منحته مبلغًا طيبًا من المال . السبب هو أننى أردت أن أترك لديهم انطباعًا طيبًا .. فى هذا العالم لتظفر بانطباع طيب ، فعليك أن تدفع ثمنه .

وقد جلبت مثّالاً شهيرًا لينحت تمثالاً لسيبيل وهى تبدو كملاك ينظر للسماء . مهما كانت زوجتك شيطانية فعليك أن تظهرها كملاك عندما تموت .

فى هذا الوقت توفى ناشرى مورجسون وسط أبخرة الزئبق وهو يجرى تجارب غامضة للحصول على الذهب . لم أشعر بأى شفقة نحوه فهو مختف منذ فترة طويلة .. وما فى ذلك ؟.. الناس تموت طيلة الوقت وأنا سأموت قريبًا ، فلماذا أهتم بموت شخص بعينه ؟

كنت واقفًا عند حاجز السفينة جوار لوتشيو .. عندما دارت بيننا محادثة عن الدين والخلق ، ولم أكن وقتها أؤمن بالله .. بل كنت أعتبر من يؤمنون أشخاصًا ممقوتين .. وقد أدهشنى أن لوتشيو اعترف بأنه يؤمن بالله ..

سألت لوتشيو :

ــ « وهل تؤمن بوجود الشيطان سيد الجحيم ؟ »

شحب وجهه والتزم بالصمت لفترة أدهشتنى .. ثم قال :

ــ « أنا أؤمن بالجحيم لأننى أؤمن بوجود الجنة .. ما دامت هناك جنة فهناك جحيم .. أما عن الشيطان فلو صح ما تقوله الأديان عنه لكان أتعس مخلوقات الله طرًا ... لا توجد تعاسة فى الكون تقارن به ... »

قلت فى دهشة :

ــ « أتعس ؟.. إنه يسعد بعمل الشر .. »

قال ببطء :

ــ « لا الإنسان ولا الشيطان يقدر على هذا .. »

كانت الشمس قد غابت وهناك نجم وحيد يتألق فى الأفق . أردف لوتشيو :

ــ « تخيل أن يغلقوا دونك باب الأمل .. أن تدرك يقينًا أنك مطرود من رحمـــة الله .. أن تسمع صـــوت الملائكة فى الملأ الأعلى ، لكنك تمضى وحدك فى الظلمات . إن عذاب سيزيف لهين إذا قورن بعذاب الشيطان . لا غرابة فى أنه يكره البشر .. من الطبيعى أن يصير عدوًا لهذا الجنس عديم النفع .. » .

وارتسمت على شفته ابتسامة ساخرة قاسية نوعًا ..

كان من السخف مناقشة هذه الأفكار ونحن على ظهر اليخت . الحقيقة أن تجربتى معه فى السفر للبحر كانت تجربة فريدة لم تبق لى شيئًا أرغب فيه .. كان بعض البحارة موسيقيين ، فكانوا

يخرجون إلى السطح فى الليالى الصافية ليعزفوا ويغنوا .. وكان لوتشيو يغنى معهم بصوت جميل ..

وصلنا إلى الإسكندرية فتركنا اليخت متوجهين إلى القاهرة ..

لم أكن شغوفًا بالرحلة ولا مهتمًا بأى شىء نراه .

لكنى بدأت أهتـــم عنـــدما ركبنا المركب النيلى وراح يسبح فوق النهـــر الأصفر الناعس . كنت أقضى الساعات أراقب الضفتين بما فيهما من صخور وأحجار محطمة من معابد ممالك العصر الغابر .

إن أنسَ فلن أنسى تلك القصـــة مع لوتشيو . لقـــد قال لى لوتشيو إنه يجيد فن التنويم المغناطيسى فلم أصدق وضحكت ساخرًا . قال للنوتى :

ــ « أوقف الدهبية يا عظيمة .. سوف نبقى هنا الليلة .. »

وكان عظيمة رجلاً مهيب الهيئة يلبس عمامة وجلبابًا أبيضين . أوقف القارب وساد الصمت إلا من ضوء القمر . نظر لى لوتشيو فى ثبات بعينين تخترقان المرء . حاولت أن أبتسم لكن لسانى تجمـــد . كـــان وعيى يتسرب بين أناملى . كـــان القمر

والسماء يدوران من حولى . وشعرت أن أطرافى مربوطة بقيود من حديد . فجأة شعرت بحواسى تحتد ثانية وسمعت صوت موسيقا تعزف ، ثم رأيت عبر الظلمات آلاف الأضواء فوق قباب ظهرت فجأة .. رائع !

-20-

رؤية من مبان سحرية متسعة عملاقة .. شوارع تعج بالناس والنساء وميادين متسعة بها تماثيل عملاقة ، وأزهار سوسن فى كل مكان .

رأيت أكثر من نافورة فى ضوء القمر .. سمعت الجموع تهوم وتبعث صوتاً كأنها مملكة نمل .. سمعت موسيقا مارش ساحرة . ثمة أجراس تدق وطبول تقرع .. ثمة عروس فاتنة تدنو منى .. أشعر أننى سأرى سر الكون فى وجهها ، لكنها تتوارى وراء حجاب .. لا أستطيع رؤية ملامحها ..

هنا فتحت عينى لأجد أننى أمام لوتشيو !

كان جالسًا على سطح المركب يرمق الشط المظلم الذى استراحت مركبنا عنده . وثبت صارخًا نحوه :

ـ « أين هى ؟.. من هى ؟ »

نظر لى ولم يرد .. فقلت دامعًا :

ـ « أنا رأيت كل شىء .. المدينة . الناس .. كل شىء ما عدا وجهها .. »

ضحك وقال :

ـ « أنت فريسة ممتازة لأى نصاب يتسلى عليك بأوهام مرئية .. »

ـ « هل تعنى أن ما رأيته لم يكن سوى أفكارك وقد نقلتها لعقلى ؟ »

ـ « بالضبط !... والآن حاول أن تنام يا جيفرى .. أنت تأخذ الأمور بجدية أكثر من اللازم .. »

لم أرد عليه وهبطت لأسفل المركب لأنام . حاولت النوم لكن الذعر تغلب علىَّ . كنت أشعر أن قوة غير أرضية تتحكم فىَّ وتصيِّرنى وتسيِّرنى حيثما شاءت . أعتقد أن خوفى من وجود لوتشيو القوى يزداد يومًا بعد يوم .

بدأت رحلة النيل تثقل علىَّ . ورحت أرتقب اللحظة التى تنتهى فيها .

بقينا فى الأقصر عدة أيام نستكشف مقابر طيبة والكرنك . رأيت ذات ليلة عملية فتح تابوت وجده المنقبون هناك .. كانت فيه مومياء امرأة . ترجم لى لوتشيو الكلمات الهيروغليفية بسهولة تامة .

كانت هذه راقصة فى بلاط الملكة أمينارتيس .. ثم غرقت فى الخطيئة فصارت أيامها لا تطاق . أمرها الملك بأن تقتل نفسها .. كانت فى العشرين من عمرها .. وهناك تفاصيل أخرى لكن هذا أهم شىء ..

نظر لوتشيو للواقفين وقال :

ــ « هلا نظرنا إلى وجهها لنعرف كيف كانت تبدو ؟ »

وقفت أراقب عملية فك أربطة المومياء فى شغف وفضول . نزعوا القناع عن الوجه بصعوبة ، هنا أصابنى ذعر قاتل .. كأن الوجه الذى أراه وجه سيبيل ...

وتسربت روائح عطرية مقـززة إلى رئتى فتراجعت وغطيت عينى . كأنه نفس العطـر الباريسى الذى كانت سيبيل تضعه عندما قتلت نفسها . كدت أقع فأمسك أحد الرجال يدى وقال :

ــ « الطقس حار .. مرهق جدًا بالفعل .. »

ابتسمت وقلت شيئًا عن دوار .. ثم نظرت للوتشيو .

عندما جاء المساء قلت لريمانيز :

ــ « ألم تر ؟.. ألم تلحظ ؟ »

ــ « أن تلك الراقصة تشبه زوجتك ؟.. نعم لاحظت .. لكن هذا لا يجب أن يضايقك فالتاريخ يعيد نفسه فلم لا تعيد النساء الجميلات أنفسهن ؟ »

لم أرد .. كان لديه رد ساخر على كل شىء ..

صباح اليوم التالى بلغ بى السقم مبلغًا فلم أغادر الفراش . استدعى لوتشيو طبيبًا يقيم فى نفس الفندق بالأقصر . فحصنى وقاس نبضى ثم نصحنى بترك مصر فورًا .. كان هذا ما أتوق له .. الفرار من هذه الصحارى الممتدة حيث يرمقنى أبو الهول فى احتقار ..

اقتنع ريمانيز بالأمر .. وشعرت بالامتنان له ونحن نعود للقاهرة فالإسكندرية ، ثم نركب اليخت (اللهب) عائدين لفرنسا أو إنجلترا .

أخلدت للراحــة فى قمرتى وقــد استرددت ثقتى فى صديقى لوتشيو . بل استرددت غرورى كذلك .

حتى اللحظة لم تجلب لى ثروتى ما أردت من سعادة .. لكن ما زالت أمامى فرصة للحصول على تفاحات هسبريد ..

سوف أتزوج زيجــة ثانية .. وهــذه الزيجة ستكون مافيس كلير !.. ليست هناك امرأة غيرهــا تستحقنى . لكن شبح سيبيل كان يطاردنى فى كل ليلة .. كانت تقف وسط اللهيب وعلى وجهها تلك الضحكة الشيطانية الساخرة وهى نصف عارية تمد يدها لى ..

كنت أنهض فى كل مرة مذعورًا غارقًا فى العرق .

لم أخبر لوتشيو بشيء .. ورحت أتناول جرعات منومة ليلاً بلا جدوى . كنت أصحو من النوم فى كل مرة على ذات الكابوس .

طاردتنى الكوابيس لدرجة أننى رحت أفتش عن مسدسى . وفى قمرتى أخرجته وتحسست المعدن البارد . ضغطة واحدة على الزناد وينتهى كل شىء .. سوف أنام .. بلا ألم ..

رفعت المسدس لصدغى ، لكن باب القمرة انفتح وبرز لوتشيو .

قال فى أدب :

ــ « معذرة !.. لم أدر أنك مشغول .. لن أضايقك !!.. »

أزحت المسدس جانبًا وقلت :

ــ « أنت تقول هذا !... حسبت أنك صديقى .. »

قال وقد تبدلت نظرة عينيه :

ــ « حسبت هذا ؟.. كنت مخطئًا .. أنا عدوك !.. »

نظرت له فى رعب .. أعدت المسدس لقرابه ونظرت له .. خُيل لى إنه يزداد طولاً وينحنى فوقى كأنه سحابة عملاقة . تجمد الدم رعبًا فى عروقى ، ثم غلف الظلام عينى فسقطت فاقد الحس .

-21-

فى ظلام قمرتى نهضت ، محاولاً أن أستجمع قواى . انطفأت المصابيح وأضاء البرق وحد ظلام المكان .

كنت أسمع صوت صراخ مجنون من ظهر اليخت . وعوت الريح كشيطان معذب ..

هرعت للباب محاولاً فتحه ، فوجدته مغلقًا من الخارج .. أنا سجين !... فاق رعبى أى شعور آخر ورحت أضرب الخشب بكلتا يدى .

كان تقلب اليخت فى العواصف يقذفنى يمينًا ويسارًا لكنى رحت أواصل الدق . فى النهاية جلست على الأرض متعبًا منهكًا . كانت قوة العاصفة تتزايد ..

وسط ذعرى سمعت من يكلمنى .. شخصًا لصيقًا بى كان الظلام من حولى قد صار له لسان فجأة ..

ـ « فى كل العالم هناك عواصف وريح وخطر . لكن بعد هذا الحياة !.. »

وجدت نفسى ابتهل لله .. الله الذى ظللت حتى هذه اللحظة أنكر وجوده .. لقد كان ذعرى بالغًا ..

ثم سمع صرخات من ألف حنجرة تعوى .. تختلط بصوت الرعد .. ثم سمعت بوضوح الكلمات :

ـ « **إيف ساتاناس .. المجد للشيطان !..** »

الرعد يردد ذات الأغنية .. البرق يكتبها .. كاد رأسى ينفجر .

ـ « المجد للشيطان !.. »

بقوة تتجاوز قوة البشر ألقيت بجسدى على الباب .. محاولاً فتحه . استجاب لى .. سمح للضوء بالدخول فرأيت لوتشيو يقف هناك فارع الطول يلبس عباءة سوداء .

قال بصوت خفيض :

ـ « اتبعنى يا جيفرى تمبست ، فوقتك قد جاء !.. »

فارقتنى كل قوة لدىَّ .. مددت يدى له وقلت :

ـ « بالله عليك !.. »

أسكتنى بإشارة من يده وقال :

— « وفر علىَّ سماع صلواتك من فضلك .. اتبعنى .. »

وتقدمنى فمشيت خلفه فاقد الإرادة مذعورًا ، إلى أن وجدت نفسى فى صالون اليخت . كانت جوارنا نافذة تقذف الماء المالح ..

قال لى بلهجة آمرة مسيطرة :

— « أرواح البحر .. تلك النفوس الخاطئة التى لم تتب عما فعلته .. إنها ملكى وتستجيب لى .. »

هنا رأيت الأمواج تهبط كأنها تنفذ أمرًا .. وانزلق اليخت فى خفة . وانزلق ضوء القمر ليغمر أرض الصالون . نظر لى لوتشيو .. وأى جمال رأيته فى ذلك الوجه!

— « هل تعرفنى الآن ؟.. . أم أقول لك ؟ »

تحركت شفتاى لكن لم أستطع النطق .. الفكرة التى خطرت لى كانت مجنونة .. خارج العالم المادى .

قال لى :

— « كن أحمق .. لكن اسمع واشعر .. لقد زالت قواك وإننى لآمرك وأحركك .. لقد اخترتك لتتعلم فى حياتك الدنيا الدرس الذى تعلمه الجميع بعد موتهم ... »

ما زال يبدو ظريفًا ودودًا برغم أنه أعلن من قبل أنه عدوى .

قال لى :

— « أنت رجل مجدود الحظ ، لكن من يأخذه الكبر والغرور ، ينكر وجود الله .. ويسلم مصيره لقوى أخرى ... قوى الشر .. هذه القوى هى ما يسميه البشر (الشيطان) .. أمير الظلام .. الملائكة يسمونه لوسيفر . أمير البهاء .. »

هل جن هذا الرجل ؟

قال لى :

— « أنا أبحث عن الرجال الذين غرقوا فى غيهم .. أصير أفضل رفيق لهم .. والحقيقة أننى أصير كما يريدون هم .. هم الذين يصنعون مظهرى . وعبر العصور أطلق على البشر أسماء عديدة مختلفة .. يجرؤ البشر على أن يشكوا وأن يروا الكون من خلال أعينهم فقط ، بينما يجهلون كل شىء عن عالم ما وراء الطبيعة .. لأنكم لا ترون .. تشكون !.. أنتم حمقى !.. لا تعرفون أن كل عمل لكم وكل فكرة سوف تخلد فى عالم المطلق .. وكما كانت روحك هنا ستكون روحك هناك .. »

وتغير الضوء المحيط برأسه .. وقال :

ـ « لقد نسى الإنسان ما فيه من خلق الله ، وأعجب بكل ما يمت للشيطان .. هذا هو اختيار الإنسان .. ليس اختيارى ... لو أراد البشر أن يتخلصوا منى لما كان لى وجود . لكنك تلخص قوة الجحيم .. »

كنت أصغى وقد بدأت أفهم بشكل مبهم طبيعة هذه المقابلة غير الأرضية .

ـ « أنت يا جيفرى تمبست ولدت وفيك قبس من حكمة الله .. العبقرية .. كنت تحمل بذورها ، لكنك لم تستطع الانتظار .. أعماك الفقر ورغبة الثراء .. بدت معاناة الآخرين تافهة بالنسبة لك . صرت مستعدًا لأن تكفر وتموت . ولهذا السبب جاءتك تلك الملايين ولهذا ظهرت أنا فى حياتك .. وكانت أمامك علامات كثيرة تثير الريبة .. كان بوسعك التوقف فى أى وقت .. »

كانت عيناه تعكسان الاحتقار الآن .

ـ « ملايينك هى مالى .. ومن ترك لك هذا الميراث كان تعسًا فقيرًا صار غنيًا مثلك .. هو الآن فى طور من الوجود أكثر واقعية .. وسوف يكون عليك الدور كى تتعلم . أنت لست الطراز

الذى نسميه (مجرمًا) فأنت لم تقتل أحدا أو تسرق أحدًا .. لكنك منحت الموهبة ومنحت الثروة ومنحت زوجة جميلة ، لكنك لم تستغل هذا إلا لتحقيق سعادتك . القاتل قد يتوب .. الزانى قد يتوب .. السارق قد يتوب .. لكن الأنانى الغارق فى اللذات لا يتغير أبدًا . أنت اعتبرتنى صديقًا .. كان عليك أن تدرك أننى عدو .. كل من ينافق رجلاً ويطرى عيوبه هو عدوه .. »

تأوهت بصوت عال وبحثت حولى عن قبر أدفن فيه نفسى . كانت أطرافى ترتجف وقدرتى على التفكير قد شلت تمامًا .

نظر لى بعينيه الثاقبتين وقال :

ـ « أى مخلوق غريب صنعتموه منى !... ما الذى علموه لك فى المدرسة والكنيسة عنى ؟.. قالوا إننى أستمتع بالشر .. لا يمكن الاستمتاع بالشر أبدًا .. إنه يعبر عن قنوط الكون . كل خطيئة يرتكبها بشرى تضاف لعذابى .. لكن قسمى لا يتزحزح .. لقد أقسمت أن أغوى الناس . لكن الإنسان لم يقسم أن يخضع لى . إنه حر !.. تعال معى الليلة .. إن الغطاء مكشوف من أجلك .. »

ومد يده لى وصار صوته خفيضًا لكنه مخيف .

شعرت بأننى أغوص فى البحر ثم إذا يد ترفعنى ، فوجدت نفسى على ظهر اليخت . توقعت أبشع العذاب ، مع يقين فى نفسى أننى مهما ابتهلت إلى الله فلن يغفر لى .

هنا رأيت حـــولى عالمًا متجمدًا كأنه لم ير الشمس قط .. جدران من ثلج تنطبق على اليخت . ورأيت ملاكًا بدلاً من لوتشيو .. حول رأسه هالة وفى عينيه حزن غريب عميق ..

نفس ملامح لوتشيو نوعًا لكنها اكتسبت مجدًا أثيريًا . لم أعد أشعر بأى مشاعر جسدية لكنى شعرت بروحى تنبض بالرعب والخوف .

أدركت فجأة أن هناك حشدًا من عيون تحملق فىَّ .. أيد تمتد لى .. فى ترغيب لا تهديد . وراح لهب قرمزى ينتشر حول اليخت المحاط بالثلج .

حتى هو .. عدوى .. حيث وقف عند الدفة .. صار مغلفًا بهذا اللهب القرمزى .. وسمعت صوتًا حزينًا بلا نهاية لكنه عذب .. شق الصمت ليقول :

ـ « أبحر يا إميل إلى حدود العالم !.. »

إميل !.. الدفة !

كنت أعرف من البداية أن هذا الرجل (إميل) شيطانى .. هناك تاريخ من الجريمة فى مظهره . كان يحرك الدفة بيد شاحبة .. وبدأت جبال الثلج حولنا تتشقق ..

ـ « اندفع يا إميـل .. اندفـع إلى نهاية العالم .. إلى حيث لم يجسر إنسان من قبل !.. »

تعالى صوت الرعد وانهمرت ألسنة البرق ..

لقد انتهى أمرى ... لا أجرؤ على التفكير ..

سرعان ما اخترقنا الثلوج .. وانطلقنا فى البحر الواسع المتألق كالفضة ..

ساد الهدوء وبدا لى كأننا نقترب من جزيرة استوائية جميلة ، وسمعت غناء رقيقًا أرسل الدمع فى عينى .. ترى هل هذا هو الفردوس المفقود ؟

كنت أرى فى كل مكان تلك الوجوه التى عرفتها فى حياتى ..

نظرت إلى لوتشيو فوجدته يقف عند الدفة وقد رفع ذراعه :

— « انظر !.. هنا نقف ... » – قال الصوت الآمر — .. »

هنا حيث لم يلق وجه البشر الخاطئ ظله .. هنا حيث لم يرتكب جشع البشر جريمة .. هنا حيث لم يقتل أحد كائنًا حيًا . هنا نهاية العالم .. المكان الوحيد الذى لم تدنسه قدم الإنسان .. »

ثم نظر لى بعينيه الثاقبتين وقال :

— « يا رجل .. لا تخدع نفسك فتعتقد أن هذا وهم أو هلوسة .. هـذا المكان حقيقى . والآن عليـك الاختيـار بين مصلحتى ومصلحتك أو الله .. »

كان شريط حياتى بكل دقائقه يجرى أمام عينى .. فصحت :

— « الله وحده !.. لا أريد سوى الله وحده .. حتى لو كان الهلاك أو التلاشى ينتظرنى معـه .. لا توجد عنـدى خيارات أخرى .. »

هنا شعرت بشيء يشرق ويتألق فى الأفق كأنه الشمس ذاتها ، وسمعت صوتًا ساحرًا يقول :

— « انهض يا لوسيفر يا بن النهار .. هناك روح قد رفضتك .. لقد منحت ساعة من السعادة .. »

كان اليخت يغطس ببطء من تحتى .. هناك أيد قوية تمسك بى . غمغمت قائلاً :

— « الله .. الله وحده .. »

كان القارب مستمرًا فى الغوص ، ثم سمعت صوتًا يقول :

— « اربطوا قدميه ويديه .. ثم ألقوه فى أقصى بقاع الظلام .. »

وفجأة بدأت أرى الشمس .. شمس الأرض العذبة .. هالتها الذهبية تتوهج فى الشرق . لكن ذلك الملاك الحزين لوتشيو لم يكن سعيدًا .. شعرت به يجذبنى إلى القاع .. إلى عالم بارد كئيب .

- 22 -

صحوت بعد فترة طويلة من فقدان الوعى لأجد أننى فى وسط المحيط ... أطفو ولا أتمسك بشيء ..

بعد محاولات فاشلة للتجديف بيدى استسلمت تمامًا ونظرت للسماء . بينما المحيط يهدهدنى كرضيع فى ذراعى أمه .

لقـد ضعت ووجدت .. وجدت فى هـذا البحر الذى سيكون ضريحى عما قريب .

أشعر بوجود روحى .. أدرك أنها أروع شيء امتلكه الإنسان .

لم يبق لى سوى الندم . لكن هل يصلح الندم فى لحظات متأخرة مثل هذه ؟ . أنا شيء بلا قيمة وسط المحيط . ووسط ذعرى نطقت بالكلمات التى لم ألفظها فى عمرى :

ــ « الله وحده سوف يختار لى الأفضل فى الحياة ... والموت .. وما بعد الموت .. »

وأغلقت عينى وتركت نفسى لرحمة الموج . نمت وصحوت ..

وجدت نفسى أحمل بأذرع قوية إلى ظهر مركب .. بينما روعة الفجر تغمر الأفق . انهالت على الأسئلة فلم أرد .. لقد كان لسانى متقرحًا . رحت أنظر للسفينة .. أتكون هذه سفينة أخرى للشيطان تجوب البحار ؟

دنا منى رجل عريض المنكبين وقال :

ــ « هذه سفينة بريطانية .. نحن ذاهبون لساوثهامبتون . رآك رجالنا تطفو فى البحر فأرسلنا لك قاربًا .. أين سفينتك ؟؟ هل لك رفاق نجوا ؟ .. »

انفجرت فى الضحك والبكاء .

بريطانيا !.. أرسلت الكلمة الحياة فى عروقى .. إنجلترا !.. البقعة التى يجلها الجميع . حاولت أن أقول كلامًا مفهومًا فلم أستطع .. غبت فى نعاس عميق ...»

منحنى القبطان قمرته ، ورحب بى البحارة .. وفحصنى طبيب السفينة بحماس . كنت سعيدًا جدًّا .. أنا نجوت .. أنا منحت فرصة أخرى !

جاء اليوم الذى جلست فيه أرمق ساحل إنجلترا يقترب . بدا لى أننى فارقتها منذ دهر .. فالزمن هو ما يصنعه خيالنا . ومن بعيد بدت جزيرة شكسبير السعيدة كأنها جوهرة ..

دنا منى القبطان وقال لى :

ــ « الآن ونحــن ندنو من الســاحل .. هل لى على الأقــل أن أعرف اسمك ؟.. لم نعتد أن نقابل رجلاً فى وسط المحيط من قبل .. »

دهشت لهذا الطلب . كنت قد نسيت أن لى اسمًا .. قلت له :

ــ « جيفرى تمبست .. »

اتسعت عينا القبطان وهتف :

ــ « جيفرى تمبست .. الذى كان مليونيرًا ثريًا ؟.. »

بدت علىَّ الدهشة وسألته :

ــ « كان ؟.. ماذا تعنى ؟ »

ــ « ألم تسمع ؟.. أكره أن أكون أول من يحمل لك هذه الأخبار السيئة ... »

وذهب لقمرته فأحضر جريدة أمريكية عمرها سبعة أيام .. ناولها لى لأقرأ العنوان :

إفلاس مليونير !

قرأت الأخبار ورأسى يدور . المحاميان اللذان عهدت لهما بتولى ثروتى فى غيابى ، قد تورطا فى استثمارات كبيرة . زورا توقيعى وتعاملا مع المصرف فلم يشك أحد . ثم فرا وتركانى مفلسًا كما كنت قبل أن أسمع عن هذه الثروة .

قلت للقبطان الطيب :

ــ « شكرًا لك .. يمكننى أن أقول إننى آسف على المحاميين أكثر مما آسف على مالى . كل اللصوص تعساء .. كل ما حدث هو أن علىَّ أن أبدأ الحياة من الصفر .. »

نظر لى فى ذهول وقدر أننى لا أعى خسارتى جيدًا .

لكنى كنت فى أكثر حالاتى تعقلاً .. العمل .. الهبة التى منحها الله لنا والتى من دونها لا يصير للمال قيمة .

إنجلترا أخيرًا !

ودعت الطاقم الذى عرف اسمى وصار ينظر لى فى شفقة . وفيما بعد أرسلت من بقايا ثروتى مبالغ مالية للقبطان وطبيب السفينة .

ذهبت للندن فحيث استجوبتنى الشرطة بصدد محاميى اللصين . ثم قلت إننى غير راغب فى استرداد المال فهو مال منحوس حتى زوجتى قد ماتت ونال أبوها نصف ثروتى .

ــ « الرجل الثرى يخلق من حوله اللصوص والمزورين ، ولا يجد الأمانة أبدًا .. »

وفارقت رجل الشرطة وهو غارق فى الدهشة ..

وقع حادث أثار بهجتى ، هو أننى عندما فقدت ثروتى بحث أحد النقاد عن روايتى السابقة ومزقها بلسانه .. بنفس الطريقة التى مزقت أنا بها مافيس كلير من بل . النتيجة كانت أن الناس هرعوا يبتاعون الكتاب فضولاً وعاد الكتاب للحياة . هكذا كتب لى الناشر يشكرنى وأرسل لى شيكًا بمئة جنيه .

شعرت بأننى ملك عندما تلقيت هذا المبلغ . ابتسمت لى الحياة من جديد . أنا ثرى بمئة جنيه هى نتاج عقلى ولم أرثها .

كنت أفكر فى مافيس كلير .. لكنى لم أحاول الاتصال بها . لن أجسر على ذلك إلى أن أعمل وأكون نفسى من جديد ، وعندها سوف أخبرها بكل شىء .

لم أجسر كذلك على زيارة ويلزمير ، فهو مكان يدعو للشؤم بالنسبة لى . عندما تزوج الإيرل لم أذهب للزفاف .. لكنى لم أندهش عندما قرأت فى الصحف ضمن قائمة المدعوين اسم الأمير لوتشيو ريمانيز .

انغمست فى مشروع أدبى جديد .. ولم أخبر به أحدًا ..

هنا اهتز الوسط الأدبى بسبب قصة جديدة لمافيس كلير . وقد كرمها المجتمع وأحاطها بالورود . لم تنس وسط هذا المجد أن تكتب لى خطابًا قصيرًا :

عزيزى :

عرفت بالصدفة أنك عدت لإنجلترا . يسرنى أن الجمهور أقبل على كتابك بعد فترة نسيان . هذا يعزيك عن خسارتك الكبيرة على المستوى الشخصى والمادى . هل يمكنك أن تأتى لترانى ؟

مافيس كلير .

تلاعب الضباب أمام عينى .. شعرت بوجودها الرقيق فى الغرفة . البسمة المشرقة لأعذب امرأة عرفتها فى حياتى . سوف أذهب لأراها ذات يوم قريب فهى تملك بالتأكيد مفاتيح السعادة . خرجت أجوب الشوارع وظللت لساعة متأخرة .. وعندما عدت للبيت كنت أتحسس خطاب مافيس جوار صدرى .

كنت أمشى قرب وستمنستر عندما رأيت ظلاً يتحرك . رفعت عينى فوجدت لوتشيو !

هـو كما هـو .. التجسيد الكامل للرجولة . نفس البسمة الساخرة . كان ينظر لى فكاد قلبى يتوقف . مررت بجواره فتنحى جانبًا ليسمح لى بالمرور ... عندما وصلت ركن الشارع عند البرلمان نظرت له من جديد .. كان ما زال هناك . استحضرت اسم الله على شفتى واستعنت بقوة الإيمان .

خرج بعض أعضاء البرلمان فهزوا رءوسهم محيين هذا الرجل الفارع كأنهم يعرفونه من قبل . رأيت أحد الوزراء يهرع

للبرلمان مع دقات بيج بن ، فيرى لوتشيو .. حياه لوتشيو فى حرارة ثم تأبط ذراعه بطريقة آمرة . راقبتهما يبتعدان .. رأيتهما يصعدان فى الدرج .. وفى النهاية يختفيان . الشيطان والإنسان معًا !

ماري كوريللي

1895

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

79

أحزان الشيطان

(جيفرى تمبست) شاب تعس الحظ يعيش فى فقر مدقع لدرجة الجوع، ثم يبتسم له الحظ فجأة .. يصير ثريًا بشدة ، وله صديق مدهش وسيم عظيم النفوذ اسمه (لوتشيو).

ككل أبطال القصص يتصرف تمبست بسذاجة غير عادية . لماذا لا يلاحظ أن اسم صاحبه قريب جدًا من اسم لوسيفر ؟.. لماذا لا يلاحظ أن وسامة صاحبه غير أرضية وأنه يقوده عبر سبل مظلمة ؟.. لماذا لا يدرك الجو الفاوستى الذى يغلف الأمر كله ؟

العدد القادم

سبعة مفاتيح لبالدبيت